هَيئة علماءِ المسلِمينَ في العِراق

قسم الثقافة والإعلام

السلسلة الثقافية

(١)

رواية للمعتبرين

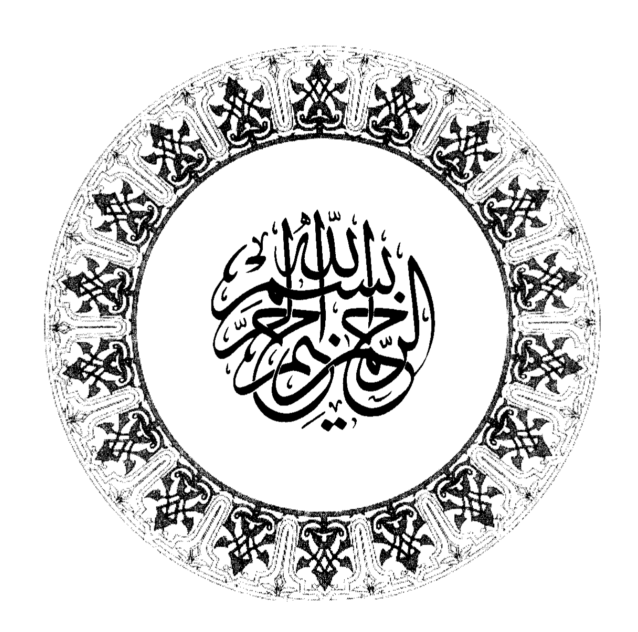


كتبها

عبد الستّار المرسومي

abdulsattarkareem@yahoo.com

مؤسسة البصائر　　　　دار النهضة


بسم الله الرحمن الرحيم

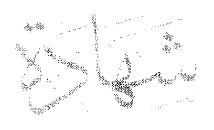
رواية للمعتبرين



الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار النهضة مؤسسة البصائر



على سفح جبل استدار مثل نصف دائرة بنى أهل قرية الجبل بيوتهم الصخرية بطريقة هندسية امتزجت فيها خبرة الحياة بحرفة متقنة تنم عن ذوق رفيع، لتبدو بيوت القرية وكأنها جزءٌ منه فيبدو الجبل وكأنه يحتضنها كما تحتضن الأم صغيرها، ذلك هو الجبل الحنون كما يحلو لأهل القرية أن يسموه بهذا الاسم..

إذا أشرقت الشمس معلنةً صبيحة يوم جديد، تمتد خيوطها الذهبية الدافئة إلى كل بيت من بيوت القرية لينتفعوا بضيائها ودفئها، وما إن تميل بعد انتصاف النهار وتشتد حرارتها إلا كان الجبل الحنون لها بالمرصاد ليصد حرارتها

ولتستظل القرية الجميلة بظله الوارف الطيب .. الناظر للجبل من بعيد يراه قطعة خضراء عجيبة، تتخللها بقع ملونة زاهية، تلك هي الأزهار المنتشرة بكثرة عليه..

في سفح الجبل المطل على القرية عين ماء زلال فرات سائغ شرابها، أحاطها أهل القرية بِلبن تؤدي لمجرًى يصب في الأرض الخصبة الواسعة التي يزرعها أهل القرية.. للجبل في الربيع منظر جميل تُسر به القلوب وتطيب لرؤيته النفوس، فبعد نزول الغيث وتسلل

خيوط الشمس الذهبية إلى حنايا القرية، يعلو الجبل في تلك ذلك القوس الرائع الألوان، وتتجلى أزهار الربيع التي تكسو الجبل فيبدو وكأنه عروس ألبست ثوب عرسها ووضع الإكليل على رأسها..

أهل القرية أناس طيبون، هادئون، متسامحون، متعاونون، يحبون العمل بشدة، يتبادلون الاحترام فيما بينهم بشكل كبير، لا يختلط رجالهم بنسائهم إلا للضرورة، وهم مثقفون بالرغم من أن حياتهم بدائية وبسيطة، فهم يعتمدون على عين الماء التي في سفح الجبل للشرب والطهي والسقي وبقية الأمور المتعلقة بالحاجة للماء، ويستخدمون الفوانيس للإضاءة، ويمتطون الحمر للتنقل من مكان لآخر ولنقل حاجياتهم وأثقالهم، بالرغم من أن القرية تعيش في زمن الحضارة والاستكشافات العلمية وليس في القرون الوسطى، ولكنها تركت كما ترك غيرها من القرى المجاورة، وعلى الرغم من ذلك تراهم سعداء لا يتذمرون من شظف العيش الذي هم فيه، عملهم الرئيسي هو الزراعة، وتجد فيهم من يعمل في الحرف اليدوية لتلبية احتياجات أهل القرية .. و مما يضفي على القرية رونقاً وبهاءً مشهد يتكرر في كل يوم خمس مرات عندما يصدح صوت المؤذن للصلاة فيُرى رجالُ أهل القرية ينثالون

إلى مسجد قريتهم كما تنثال ثلوج الجبال إذا لامستها حرارة الشمس، و صوت المؤذن جهوري يسمعه القاصي والداني ..

من يدخل القرية يشعر أنها تتألق تألقاً منقطع النظير، ليس بما حباها الله من جمال الطبيعة فحسب، بل بأخلاق أهلها أيضاً.. بين بيوت القرية مسجد الجبل، بناه أهل القرية الأوائل بأيديهم ثم استلمه أبناؤهم وأحفادهم يعمرونه ويديمونه ويقيمون صلاتهم فيه..

بمحاذاة المسجد بيت شيخ المسجد، وهو شيخ جليل تبدو آثار الصلاح في وسيع جبينه، ذو لحية، بهي الطلعة، مهتم بنفسه وصحته، وقور، قوي البدن، صفي النفس، عبق الروح، منشغل بعيوبه، قوي الإرادة متفائل، وهو فوق ذلك كله مدرك كل الإدراك لما يدور حوله، شجاع بلا غرور أو تهور، لا يكادُ ذكرُ الله يسقط من لسانه، يقابل الإساءة بالإحسان دائما، لا تقتصر ثقافته على العلوم الإسلامية الشرعية التي يتخصص بها، وإنما تعدت ثقافته ذلك إلى الأدب والطب والزراعة والاقتصاد، وقد جمع ثقافته هذه من الكتب الكثيرة والنفيسة التي أسس بها مكتبة مسجده..

امتاز بين أهل القرية بلباسه، فلا يشاهد إلا وهو يلبس جبته ويعتمر عمامته، ذاك هو شيخ القرية (يوسف) الذي شهد له كل من رآه أو التقى به أنه داعية من الطراز الأول، ونوع فريد من الرجال، له من الأولاد: (محمد) الذي سماه على اسم النبي صلى الله عليه وسلم، و (حسان) على اسم جده الأكبر وهو أيضاً

موافق لاسم شاعر الرسول حسان بن ثابت، ومن البنات (آمنة) موافقة لاسم أم النبي محمد ﷺ، و(مريم) تلك المرأة المتبتلة التي ذكرها القرآن في غير موضع فكانت مريم الصغيرة اتباعاً للتسمية القرآنية، ويساعد الشيخ في إدارة شؤون المسجد تلميذه (حسن)، وهو شاب تربى على يد شيخه منذ صغره، فصار أحد أركان المسجد، وهو مؤذنه وقد تأثر كثيراً بشيخه فصار له قدوة..

و(حسن) هذا شعلة من نشاط تجلت فيه روح الشباب الواعي بشكل كبير، رباه شيخه أن يكون ايجابياً مع نفسه لتطويرها والسمو بها، ومع مجتمعه للمشاركة والتفاعل في حل قضاياه، والإمساك بالمبادرة دائما للوصول للنجاح والتفوق. ويأبى حسن أن يكون ذلك الكسول اللامبالي الذي لاتهزه مشاكل الناس الذين يعيش معهم، بل كان دائما من الشجعان البارزين المبادرين، وقد تعلم حسن من شيخه أن الريادة والأسبقية شرفٌ لا يناله إلا الأوائل الذين يقتحمون مجالات لا يقتحمها غيرهم، ويحققون من الانجازات ما لا يحققه أحد، لذلك سعى دائما لزيادة الوعي عنده وطلب العلم والمعرفة، ويعمل لزيادة ثقته بنفسه بشكل دائم ويزيد من قابليته للاقتحام..

من الكلمات التي أثرت بحسن تلك التي قالها له شيخه (يوسف) يوماً: (أنت أكبر من سنك بكثير) وهكذا يكون هذا النوع

من الرجال، كباراً منذ الطفولة،وكان إذا أحب أن يلاطفه يناديه (يا بصري)، نسبة إلى العالم الرباني الجليل (الحسن البصري)..

اعتاد الشيخ (يوسف) أن يجمع أهل القرية رجالاً ونساءً، فتيةً وفتياتٍ، قرب عين الماء الفرات على سفح الجبل في أرض واسعة خضراء كل يوم جمعة، فيقيم فيهم صلاة الجمعة وخطبتها التي يجلس فيها الرجال قبالة الشيخ وخلفهم الفتيان وخلف الفتيان النساء والفتيات، خطبة الشيخ (يوسف) في العادة بليغة ومؤثرة، تَوْجَلُ منها القلوب، وتذرف منها العيون، وترق وتطيب لها النفوس، يتفرق الناس بعدها وقد أضاف لهم شيخهم شيئاً جديداً، وهم يدعون لهذا الشيخ المبارك الذي لم يتأخر مرة واحدة في إسعاف طلباتهم، ولا يبخل بماله عليهم ولا يألو جهداً في خدمتهم..

لا يكاد الليل يرخي سدوله على القرية معلناً انقضاء يوم من أيامهم إلا وهم واثقون أن انبلاج الصبح سيعلن عن ميلاد يوم أسعد من سابقه..

*****

تمر الأيام وتنقضي السنون وأهل القرية في هناء وراحة بال وسعادة ومحبة وتعاون، فهم منهمكون في إنجاز أعمالهم وتربية أولادهم وتأدية حقوق ربهم وحقوق بعضهم تجاه بعض، ولكن هذا الحال السعيد يجعل الشيخ (يوسف) في يقظة وحذر دائمين،

لأنه يعلم أن الله مبتليهم لا محالة، فهو يعلم حقيقة السنن الكونية التي يسير الله سبحانه وتعالى بها الكون، فكانت الآية الكريمة:

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]. لا تفارقه أبداً، فيردد الشيخ مع نفسه ولكن بصوت مسموع: - نعم الدنيا دار ابتلاء .. ومحل امتحان .. لقد قال أهل قرية الجبل آمنَّا .. وهم بانتظار أن يفتنوا، الفتنة التي تميز الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب والغثَّ من السمين..كما أن الشيخ يعلم علم اليقين أن العدو الأول للمؤمنين إبليس لن يدعهم وشأنهم يهنؤون بما هم فيه،لأن ذلك يغضبه ويبعث في نفسه الألم والحسرة والضغينة التي حملها على أبيهم آدم من قبل وهذا حال الدنيا صراع منهجين: منهج الحق ومنهج الباطل ...

*****

لم يدم الأمر طويلاً، حتى لاحت بوادر ما كان يخشاه الشيخ من أن مؤامرة شرسة قد دبرت ونسجت خيوطها بليل، حيث عاد أحد أبناء القرية من بلاد الغرب بعد إنهائه دراسته الجامعية وحصوله على شهادة في أحد فروع علم الهندسة .. لقد كان محمد بن صالح الشخص الوحيد من أهل القرية الذي سنحت له فرصة إكمال دراسته الثانوية في المدينة، فأهل القرية بالكاد يستطيعون توفير

مستلزمات الحياة البسيطة من أجل البقاء، هـذا مـن جانـب ولعـدم توفر المدارس قرب قريتهم من جانب آخر، إلا محمد بن صالح فقـد قضى سـني دراسته الأوليـة عنـد أحـد الأقـارب في المدينـة، حـصل بعدها على منحة دراسية إلى إحدى البلاد الغربية لدراسة الهندسة ..

ولعل أكثر ما كان يثقـل كاهـل صـالح ذلـك الرجـل الطيـب، والمزارع المثابر، والأب المثالي هو جمع الدنانير من كد يـده وأحيانـاً يضطر إلى الاسـتدانة مـن بعـض أهـل القريـة مـن أجـل أن يرسـل النفقة الإضافية إلى ابنه لعدم كفاية أموال المنحـة، وكـان يرجـو أن يكون الابن باراً به وبأهل قريته الذين كانوا في أشد الشوق لـذلك الـشاب الجبلي الـذي غـادرهم إلى بـلاد الغـرب لرفـع رأس أهـل القرية، لقد مرت أكثر من ست سنين على سفره، وهاهو محمـد بـن صالح يعود بعد غربته الطويلة حاملاً بيمينه الشهادة الموعودة..

وما إن حط رحاله في بيت أبيه حتى قام الأب البارُّ بولده بنحـر الذبائح ودعوة كل أهل القرية لوليمة الفـرح بعـودة الابـن، ولم لا يفعل ذلك؟ فهاهو اليوم الذي انتظره سنين طويلة، وهـاهو ولـده فلذة كبده يعود بعد غياب طويل ..

توافد أهل القرية أفواجاً وأفـراداً ليبـاركوا لمحمـد وأهـل محمـد بالشهادة التي حصل عليها وبعودته إلى أهل قريته سـالماً غانمـاً، وأي غنيمة أكبر من شهادة علمية كبـيرة يحلـم كـل أهـل القريـة أن تكـون

لأبنائهم ، وفي قلوبهم الأمانيُّ التي طالما راودتهم أن يعود بالنفع والخير على أبناء قريته. إنه حدث كبير ولا شك .. وبطبيعة الحال كان الشيخ (يوسف) أول الزائرين وأول المهنئين بهذه المناسبة السعيدة ..

جلس الشيخ بجوار محمد فقال له وهو يحاوره :

ـ إيه يا محمد.. نحمد الله على سلامتك .. ونهنئك ونبارك لك التخرج والشهادة، ولكن قل لي بأي تخصص كانت شهادتك وفي أي علم من العلوم ..

ـ إنها في الهندسة الكيمياوية وهي أحد فروع علم الهندسة أيها الشيخ .

كان الحضور يستمعون إلى المحاورة بكل جوارحهم وبانتباه شديد، كأن على رؤوسهم الطير ..

قال الشيخ يوسف :

ـ لم نسمع من قبل بهذا التخصص الهندسي ، نعم سمعنا ونعرف أن هناك هندسة ميكانيكية وأخرى كهربائية ، هلا حدثتنا عن هذا العلم!

أجاب محمد بن صالح وفي نبرته شيء من الفخر والعجب قائلاً :

ـ إنه علم كالبحر ، إنه عالم مستقل بحدِّ ذاته، قد لا يكون من المجدي أن أتحدث عنه في هذا المقام لأنه خارج معرفة الحضور ،

ولكني سأتحدث لكم عن التخصص الذي قدمت فيه أطروحتي وتخصصت به ..

ـ باختصار شديد أيها السادة: إنه التصنيع الغذائي، لقد آن الأوان لتوسيع وتطوير الأفكار الصغيرة التي كانت تنفَّذ في البيوت لتصنيع معجون الطماطم ومربيات الفواكه وجعلها معامل تنتج كميات كبيرة ترسل إلى المدينة لتسويقها .. تعجب الحضور من هذا الكلام وساد الصمت الجلسة الذي قطعه الشيخ (يوسف) متسائلاً:

ـ ولكن من أين لنا بالطاقة الكهربائية التي سنشغل بها هذه المصانع.. أوليس هي بحاجة لمكائن تعمل بالكهرباء التي لم تصل قريتنا بعد؟

فأجابه محمد بن صالح:

ـ سنقدم طلباً للحكومة نخبرها فيه بنيتنا في بناء هذه المصانع التي لن يعود نفعها على القرية فحسب، بل سيتعدى ذلك إلى البلد كله، وسيوافقون حتماً على ذلك لأننا سندعم اقتصادنا الوطني..

ـ وسننعم نحن بالإضاءة الكهربائية والدفء الكهربائي، قالها رجل بفرح ..

وصاح آخر من بين الحضور:

ـ ولن يكون هناك تلف في الكميات الكبيرة من الطماطم،

حيث كنا كل سنة نعاني ما نعاني في بيعها وتسويقها .. وصاح آخر :

ـ وغابة التفاح التي خلف الجبل ستكون من ثمارها أنواع جيدة من المربى، وآخر : ـ ولا تنسوا الشباب في القرية، لقد بدؤوا يعانون من عدم توفر فرص للعمل .. وهذه فرصة لتشغيلهم والقضاء على البطالة ونتائجها السلبية ..وآخر :

ـ وستصل إلينا وسائل النقل المتقدمة في البلد..

ـ وربما نتحول إلى مدينة وستشتهر مدينتنا .. من يدري ؟

فرح أهل القرية أيما فرح وابتهجوا، وانفرد كل واحد منهم بالذي بقربه يحدثه عن أمانيه وأحلامه ..

في خضمِّ هذا الفرح العارم والأمنيات التي لا تحدها حدود، فات على أهل القرية أن الشيطان قد دسَّ لهم السم على طبق من ذهب وهم لا يشعرون، فلم يلبث أهل القرية طويلاً حتى دبَّ بينهم خبر مفاده أن محمد بن صالح قد جاء من بلاد الغرب بآلة موسيقية جديدة تسمى (البيانو)..

أثار هذا الخبر حفيظة الشباب في القرية فراح قسم منهم يتردد على بيت محمد ليستمع إلى أنغام البيانو وأما القسم الآخر فقد دفعه الفضول للحضور، ولكن مع مرور الوقت صارت تطربهم، وتؤنسهم فلازموا محمداً الذي كان يحيي لهم في كل ثلاث ليال سهرة، ثم تطورت الأمور فصارت الحفلات في كل يوم وحتى الصباح.

انتبه للأمر في بدايته المؤذن (حسن) لأنه افتقد أحد شباب المسجد حيث أصبح حضوره مرة ومرة، فتحرى الأمر وتأكد أن هذا الشاب يذهب ليستمع إلى البيانو فينشغل عن الحضور إلى الصلاة، فكلم حسن الشيخ يوسف بالقضية، وكان الشيخ (يوسف) يرى ببصيرة المؤمن الورع التقي غير الذي يراه أهل قريته، فقد فطن للخطر الداهم الذي هاجم شباب القرية حيث بدؤوا ينجرفون بتيار اللهو و الملذات والشهوات، وهذه هي الخطوة الأولى التي ستزل بعدها أقدامهم إلى الهاوية على الرغم من أنهم يعتبرونها مسألة بسيطة، فالأمر لا يتعدى جلسات فرح ولهو وسمر، وعلى الرغم من أن الحضور لا يمثل كل شباب القرية، ولكن رحم المستقبل محملة بالمفاجآت من وجهة نظر الشيخ (يوسف)، لذلك لا ينبغي السكوت..

وبالفعل مع مرور الأيام ثبت صحة نظرة الشيخ وفطنته، فقد استطاع الشيطان وللمرة الأولى منذ سنين طويلة أن يستحوذ عليهم، وأن ثلة من شباب المسجد الذين كان المسجد يزهو بهم، بين راكع وساجد وقائم وتالٍ للقران ومنظف للمسجد ــ على الرغم من مواعظ (حسن)لهم حيث كان لا ينفك في نصحهم والتكلم معهم في كل مناسبة وكل وقت ــ صار لا يؤنسهم إلا الجلوس بقرب محمد بن صالح للاستماع لمعزوفات البيانو التي

سحرتهم، بل تركوا حتى أعمالهم فهم يسهرون ليلاً حتى الصباح وينامون نهاراً ..

لقد تغيرت الأمور كثيراً بالنسبة لهم وانقلبت الأمور رأساً على عقب، أما الشيخ فكعادته، بدا ثابتاً وتصرف بهدوء وحكمة، فهو يعلم أن هذا هو أول السيل والمشوار طويل، فشمر عن ساعد الجد بإرادة لا تلين، صلبة كالحديد متوكلاً على الله، حيث كان من عادته أن يلقي درساً في مسجده يوم الاثنين من كل أسبوع، فأمر المؤذن حسناً أن يهيئ الوضع ويبلغ الناس لإضافة درس آخر يوم الخميس، وكان يركز على مواضيع لها مساس مباشر في قضية الملذات والشهوات، وكان يستخدم أسلوب التلميح كثيراً، ولكن الحضور في تناقص مستمر وذلك مؤشر خطير بالنسبة للشيخ (يوسف) ..

كانت الأيام تمر مسرعة والمعركة قائمة بين الرجل الصالح ومن معه وبين الشيطان الذي لا يشفي غليله إلا انزلاق أهل القرية إلى هاوية الرذيلة، فقد آن الأوان له ليفرغ ما في جعبته من دناءة ووقاحة وحقد ليكسب هذه المعركة التي طالما كان الطرفَ الخاسرَ والمنهزمَ فيها يوم كانت قرية الجبل من قرى الله، وكان أهلها مع الله، وكان مما يؤلم الشيخ ويقضُّ مضجعه أن نتائج المعركة تشير إلى تفوق لصالح جند الشيطان، فمعظم الشباب

انكبوا تماماً على جلسات السمر التي يقيمها محمد بن صالح يوميّاً، ولم تنفع معهم إرشادات الشيخ ولا مواعظه، والأدهى من ذلك وبعد مرور بضعة أشهر على انطلاق أول جلسة عزف على البيانو رأى الشيخ أن هؤلاء الشباب صاروا لا يأبهون إذا سمعوا صوت المؤذن ينادي للصلاة، فضلاً عن شباب تاركين للصلاة أصلاً، وهذا الأمر لم يكن يمرُّ على بال شخص من أهل القرية البتة، فلا يعقل أن يكون في قرية الجبل شخص لا يصلي .. ولكن الأمر ازداد اشتداداً وتفاقماً على قلب الشيخ (يوسف)، عندما أخبره تلميذه حسن بنبأ مفاده أن عمل محمد بن صالح لا يقتصر على جلسات السمر في العزف على آلة البيانو، بل تعدى ذلك إلى أمر مهول وعظيم، وهو أن محمداً يعمل على عصر العنب في منطقة من الجبل ليصنع منه خمراً ، وأنه يجلس في مجموعة من الشباب في أعلى الجبل الحنون يفترشون أرض الجبل ويشربون حتى الثمالة ثم يتسللون إلى القرية في ساعة متأخرة من الليل..

كان الشيخ من أوائل من استمع لهذا، فالأمر لم يعد خافياً بطبيعة الحال، إلا أن الشيخ تذكر قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦] فعلى الرغم من أن من نقل الخبر عنده موضع ثقة وصدق ولا شائبة عليه وهو تلميذه حسن، الذي رباه على

الصدق والأمانة وتحري أي أمر قبل نقله، أراد الشيخ أن يتبين و يتثبت من هذا الأمر بنفسه فجلس يتربص بمحمد وبمن معه ممن تحوم حولهم الشبهات من الشباب، حتى إذا جنَّ عليهم الليل تسللوا إلى الجبل فتبعهم الشيخ دون علمهم، حتى إذا انتهوا إلى الجبل جلسوا وأخرجوا قدراً كبيراً قد خبؤوه ووضعوا فوقه بعض الحشائش وصاروا يشربون الخمر..

رآهم الشيخ واستمع لحوار دار بين بعضهم:

ـ اسمعوا يا شباب .. اليوم لن نسرف في شرب الخمر .. بالأمس كاد أمري أن يفتضح، فقد عدت مخموراً وكان أبي مستيقظاً فسألني بعض الأسئلة وأنا بالكاد استطعت أن أسيطر على توازني وأتكلم معه ..

ـ ولو اكتشف أبوك الأمر .. لكنا في مصيبة .. قال آخر.

ـ من حسن حظنا أن أهل قرية الجبل لا يميزون بين المخمور وغير المخمور من طيبتهم .. ضحك الجميع بصوت مرتفع بعد هذا المقال ..

لقد سمع الشيخ حديثهم، وهم يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله إذ يبيتون ما لا يرضى من الأفعال المنكرة وهو يعلم سرهم وعلانيتهم ..

وهكذا حصل الانحراف الخطير في أخلاق شباب القرية، لقد

انتبه الشيخ إلى أن الميوعة هي صفة جديدة للشباب، بدلاً من الرجولة التي كانت تكاد تنضح من أحدهم، استعاضوا بالكذب عن الصدق، فقدوا الأمانة ولازمتهم الخيانة، وأي خيانة أعظم مما يفعله هؤلاء، نعم هذه نتيجة حتمية لأناس شغلهم اللهو وحب الشهوات، هنا أدرك الشيخ الخطر والكارثة التي ستحل بالقرية وأهلها وكيف أن النبي محمد ﷺ سماها (أم الخبائث)، وحق له أن يسميها بهذا الاسم لأنها البداية لنهاية مؤلمة، والتي تعقبها الخبائث الأخرى ولأول مرة يدبُّ الخوف في قلبه، لأنه كان يخشى من أن الله سيأمر ملائكته فيميلون على القرية ميلة واحدة فيمزقونها كل ممزق ويهلكونها، ففكر طويلاً في البحث عن الوسيلة والعلاج لهذه المصيبة التي حلت بالقرية، والتي ستجلب لأهلها الويل والثبور في المستقبل القريب ..

رأى الشيخ يوسف أن يطوف على أهل القرية بيتاً بيتاً يحذرهم من العواقب التي ستحل بهم إذا لم يثوبوا إلى رشدهم، فقام بالفعل وتنقل بين بيوت أهل القرية بلا ملل كل على انفراد، يحدوه الأمل بالعودة إلى ما كانوا عليه، فصار يحدثهم ويحثهم على أن يعملوا جادين ليمنعوا هؤلاء الشباب الطائشين من أن يهلكوا أنفسهم وأهليهم، ويذكرهم بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥]، ولكن

أهل القرية ظنوا ظنَّ السوء بالشيخ المبارك وحسبوا أن ما يحرك الشيخ إنما هو الحسد لمحمد بن صالح الذي جاء بالشهادة الهندسية الكبيرة ورفع رأس أهله وقريته.

وهكذا فقد حكم على هذه المحاولة بالموت وهي في مهدها لأن أهل القرية أولوها تأويلاً خاطئاً، ولكن اليأس لم يجد له طريقاً إلى قلب الشيخ، فكان متفائلاً لأن الحق الأبلج لابد أن يظهر للناس كضياء الشمس الساطعة، وقطع عهداً على نفسه أن يستمر بالدفاع عن الحق ويستمر بالحرب على جند الشيطان فإما أن ينتصر وإما أن يهلك ...وهو في تلك الحال يردد:

إما فتىً نالَ العُلا فاشتفى أو بطلاً ذاقَ الردى فاستراح

وانطلاقاً من هذا المفهوم قرر الشيخ أن يسلك طريقاً آخر غير الأول، فذهب بنفسه إلى أبي محمد (صالح) ذلك الرجل الصالح الطيب صاحب الأخلاق الحميدة، وكلمه بالأمر فقال له صالح الشيخ الكريم بألم:

ـ وهل تتصور يا شيخنا أني راضٍ بما يفعله ولدنا، نحن لا ننام الليل من الحياء من الله، ومن الصالحين من الناس، وأنا أكلمه كل يوم ولكن لا ينفع الكلام معه، كأن على قلبه غشاوة،وأنا يا سيدي بين نارين، وبين حلين أحلاهما مرٌّ، إما أن أُرضي ولدي وأُقرَّه على

ما يفعل وأغضب الله، وأما أن أطرده من بيتي وأتبرأ منه، ونحن من انتظرناه كل هذه المدة الطويلة، فلطالما بنيت آمالاً كباراً عليه، لكم حلمت أحلاماً وردية، أموراً كثيرة كثيرة .. لا أدري لا أدري، وبكى الرجل، وقال والمرارة والألم يقطعان كبده:

ـ المصيبة أني أعرف إمكانيات ولدي، ولو قاس نفسه بما يجب أن يكون لاتَّضح له أنه نصف حي وربما هو ميت، وهو لم يستغلَّ إلا جزءاً يسيراً من موارده الجسمانية والعقلانية فهو يضع نفسه في نطاق ضيق جدّاً بعيداً عن حدوده الحقيقية فهو يمتلك قوًى ومواهب كثيرة، وأعلم أن هذه من نعم الله عليه، والمفروض أن يصرفها في طاعة الله سبحانه وتعالى، ولكنه لا يفطن لها أو ربما هو يخفق في استغلالها .. ولا أفهم السبب وراء ذلك ..

ـ كلمهُ أنت يا شيخ عسى أن يستجيب لك.

رأف الشيخ (يوسف) لحال الرجل وكلم محمداً وطلب منه أن يلتقيه على انفراد عند عين الماء على سفح الجبل الحنون، فوافق محمد فكان الموعد بينهما بعد صلاة العصر لذلك اليوم..

كان حسن يترقب من بعيد وهو على علم بالموعد وبعد صلاة العصر اقترب من شيخه وقال له:

ـ يا سيدي أنت تعلم أن مثل هذا الشخص المارق وأقصد ابن صالح لاتنفع معه النصائح والمواعظ، لا يُصلح هذا الشخص غير

القوة والضرب بالعصي، دعني أعلمه الأدب مع الله ومع الناس دعني ألقنه درساً، وسترى كيف سيستقيم ويستجيب لكل ما يطلب منه، إن الضرب يا سيدي دواء ناجع وشافٍ لمثل هؤلاء، ألا ترى ذلك؟ أعطني هذه الفرصة وسترى النتائج الإيجابية التي ستسرك وتسر أهل القرية ..

الشيخ (يوسف) بطبيعة الحال يعلم ذلك ولكن ما يمنعه أمران، أولهما أنه مؤمن أن الدعوة إلى الله يفترض أن تبدأ بالنصيحة والحكمة واللين والصبر على ذلك وأن النتائج على الله وأن الدعاة مبشرون وليسوا منفرين، وأن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه، والعنف يخرب الأشياء وتكون نتائجه وخيمة في العادة، وهذا لا يعني أنه أحد الحلول، فأحياناً بالفعل يحتاج الأمر إلى العنف والتأديب بالضرب لمن لا تنفع معهم النصائح، وثانيهما ربما يترتب على ذلك مشاكل اجتماعية معقده بين عوائل أهل القرية في الوقت الذي بذلت جهود كبيرة لإيصال العلاقات بين أهل القرية إلى هذا المستوى الراقي فهم اليوم كأنهم عائلة واحدة .. فأجابه الشيخ قائلا:

ـ لا يا بني، لا يا حسن دع هذا الأسلوب ففي الأمر متسع وهناك بدائل كثيرة سيعيننا الله عليها .. وربما، أقول ربما سنحتاج إلى هذا الحل فهو ليس بمستبعد، وهو أحد البدائل التي في البال

وهو بالتأكيد آخرها وكما قيل فإن آخر الدواء الكي ..

حضر الاثنان في الموعد فأما محمد بن صالح فقد حضر بدقائق قليلة قبل الشيخ الذي جاء بعده فوجده يجلس على صخرة عند عين الماء فحياه الشيخ قائلا :

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. ـ وعليكم السلام أيها الشيخ ..

ـ بالتأكيد إنك لم تتفوه بهذه التحية طوال مكوثك في بلاد الغرب ..

ـ نعم، فالتحية هناك غير هذه ..

أراد الشيخ أن يمسك بزمام الحديث ويدير دفته كما يشاء، وقد بدا في وجهه الحزن والتأثر لما حصل وما يحصل فقال :

ـ يا محمد أتدري من سمّاك بهذا الاسم ؟

ـ أظنه أبي، أجاب محمد والدهشة تعلو وجهه!!

ـ أتدري لماذا يا ولدي ؟ سأل الشيخ (يوسف) بنبرة هادئة حنونة ..

ـ اقتداءً بنبينا محمد ﷺ.

ـ صلى الله عليه وسلم، ردد الشيخ بصوت خافت ولكنه مسموع، ثم سأله :

ـ يا محمد أتدري من سمى أباك صالحاً ؟

ـ والله لا ادري يا شيخ.

ـ سماه جدك الشيخ حسين، أتدري لماذا؟

ـ لا أعرف .. أجاب محمد وهو في عجب من هذه الأسئلة الغريبة فقد ظن أنه سيتكلم معه بشأن آلة البيانو، ولكن الشيخ قطع عجب محمد بقوله:

ـ سماه صالحاً اقتداءً بالنبي صالح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فقد كان جدك حسين شيخ القرية وسيدها، وكان يقضي بين الناس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والناس يأتونه من كل حدب وصوب للاستماع لحديثه المليء بالحكمة والبلاغة، وكان دأبهم الاستئناس والاسترشاد بآرائه الصائبة، فقد كان عالماً جليلاً حافظاً للقران الكريم، رحمه الله تعالى..

ـ يا محمد أتعرف قصة النبي صالح عليه السلام؟

استجمع محمد بن صالح قواه العقلية وطأطأ رأسه هنيهة لاستذكار القصة ثم رفع رأسه قائلاً:

ـ أذكر أنك حدثتنا يوم كنا صغاراً، قصة وأذكر منها أن الله تعالى بعث النبي صالحاً عليه السلام إلى قرية يقال لها ثمود وهي من قبائل العرب، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له والكفر بما سواه من الأصنام، والطواغيت التي تعبد من دون الله الذين وضعوا أنفسهم أنداداً لله سبحانه وتعالى، ففريق منهم آمن

بذلك وصدق، والقسم الكبير كذب النبي صالحاً عليه السلام وكفروا بما جاء به وأرادوا منه أن يقدم آية على صدقه، فإن جاء بها صدقوه واتبعوه، فأخرج الله تعالى لهم ناقة من صخرة، وكان لهم عين ماء يشربون منها، ويسقون زرعهم، ويروون أنعامهم فأمرهم الله تعالى عن طريق نبيهم صالح (عليه السلام) أن لا يؤذوا الناقة التي أخرجها لهم آية، وأن يدعوها يوماً هي لتشرب ويوماً يشربون هم، على أن لا يقربوا عين الماء في اليوم الذي تشرب فيه تلك الناقة. إلا أنهم طغوا وتكبروا ورفضوا ذلك فتآمر تسعة رجال على قتل صالح (عليه السلام) وعقروا الناقة فقام كبيرهم ... هنا تلكأ محمد بن صالح وقال:

ـ لقد نسيت اسمه قال محمد ذلك وهو ينتظر من الشيخ أن يسعفه، ـ اسمه قيدار بن سالف ،أسعفه الشيخ، مبتسماً..

ـ نعم نعم، هو قيدار بن سالف فقام هذا وكان سيداً في قومه ومطاعاً فقتل الناقة .. هنا قاطعه الشيخ قائلاً:

ـ أراك نسيت أمراً مهمّاً وحدثاً جديراً بأن لا ينسى قبل قتل الناقة ..

كان الحوار يدور بحذر بين الرجلين، فأما الشيخ فقد كان يركز ببصره على عيني محمد وكأنه يطارده، أما محمد فقد كان يروغ ببصره يمنة ويسرة هروباً من نظر الشيخ يوسف إليه ...

ـ تلعثم محمد بن صالح وقال:

ـ نعم نعم، تذكرت لقد تعاطى هذا الرجل الخمر، شرب كثيراً حتى سكر ثم عقر الناقة، وقد وصفه الله تعالى بأنه أشقى شخص في القرية لجرأته على الله ورسوله، فغضب الله على أهل تلك القرية فأهلكهم إلا صالحاً عليه السلام وأتباعه فنجاهم الله من الهلاك...

كانت الشمس في تلك الساعة توشك أن تغيب، ولا يسمع عند عين الماء إلا خرير الماء ممزوجاً بزقزقة العصافير وتغريد البلابل وهديل الحمائم وهي تسبح بحمد ربها وتكبره كلٌّ بلغته، في تلك الساعة التي قال فيها محمد (فغضب الله على أهل هذه القرية....) صدح صوت ندي تطيب لسماعه الخواطر وتطمئن النفوس، وترق القلوب وتخشع ذلك صوت الشيخ (يوسف) مرتلاً آيات من القرآن الكريم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٥]

لما انتهى الشيخ من قراءته الرائعة إذا بصمت غريب يخيم على المكان الذي هم فيه، فما عاد يسمع خرير الماء، وسكتت حتى العصافير والحمائم وكأنها تصغي لهذا الصوت الشجي الندي الجميل. أما محمد بن صالح فقد سرح في عالم آخر ..

ـ يا محمد بن صالح ..

ـ نعم يا شيخ، أجاب محمد وقد بدت على وجهه آثار التأثر بتلك التلاوة ولكنه يحاول إخفاءها . .

ـ يا محمد يا بن صالح ،أتريد أن تكون منزلتك في قرية الجبل بمنزلة قيدار بن سالف في ثمود، تكلم الشيخ بصعوبة لأن الدموع قد وجدت لها طريقاً إلى لحيتة لتبللها ..

ـ أعوذ بالله من ذلك يا شيخ أنا بحمد الله مؤمن بالله ورسوله، ولم ولن أعلن

العداء لله ولدينه ... ألا يكفي أن اسمي محمد بن صالح ؟

ـ يا محمد لا يكفي الإنسان اسمه ولا عرقه ولا نسبه و لا شكله ، قد يكون لكل هذا اعتبار، ولكن قيمة الإنسان الحقيقة يا ولدي في عمله، فمن بطأ به عمله لم يسرع به اسمه ولا نسبه، فأبو جهل من أشراف قريش وبلال بن رباح عبد من الحبشة، ولكن شتان بين هذا وذاك، سواء في الدنيا أو في الآخرة، فبلال في الجنة يمرح فيها حيث يشاء وأبو جهل في النار، بل في قاع جهنم ..

ـ يا بن صالح أتريد أن تكون نهاية قريتنا مثل نهاية ثمود؟

ـ أنا لا أفهم ما تقصد.. ما شأني وثمود؟

ـ يا بني إن أهل القرية وخاصة الشباب منهم قد تركوا المسجد بل وتركوا أمور حياتهم وركنوا إلى سهراتك الليلية!!

ـ ولكني لم آمرهم بذلك ..

هم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم .. سلهم إن شئت ..

هل رأيت أو سمعت أحداً يقول إن محمداً يجبرني على ذلك.. ؟

هنا انتفخت أوداج الشيخ وصاح بنبرة قوية فيها شيء من الغضب و التوتر :

ـ ولكن البيانو الذي جئت به من بلاد الغرب يأمرهم بذلك..

طأطأ محمد رأسه ولم يتفوه بكلمة، فأردف الشيخ وهو يحاول أن يتكلم بلسان المربي والناصح الأمين والأب الحنون أو الأخ الكبير ..

ـ يا ولدي .... يا عزيزي: عندما عدت من خارج البلاد كان يحدونا أمل بقي بريقه شاخصاً أمام أعيننا جميعاً في أن تعود بالنفع والخير على أهل قريتك الذين انتظروا عودتك طويلاً وقد أثلجت صدورنا بمشاريعك المستقبلية، ولكن يبدو أنها ذهبت أدراج الرياح، إننا نشعر بخيبة أمل كبيرة يا ولدي .. أتعرف ؟ أنت تقتل الأمل في أنفس أهلك..

ـ أبداً .. أبداً، لم تذهب ولن يخيب رجاء أحد، بل على العكس وسترى ذلك في المستقبل، ولكن الأمر يحتاج إلى وقت أطول للحصول على التراخيص القانونية وإعداد التصاميم المطلوبة وأمور أخرى وكل ذلك يحتاج إلى وقت ... بهذه الكلمات حاول

محمد أن يبرر أسباب تأخره عن إنجاز وعوده، ووجدها فرصة لتغيير دفة الحديث، لأنه شعر أن الشيخ بدأ يقترب من نقطة حساسة وهو يحاول الهروب والميل عن الموضوع الأساس فقال:

ـ يا شيخ لقد تغيرت المفاهيم في العالم، الآن هناك حضارة وهناك عالم صناعي وهناك باحثون يواصلون الليل بالنهار للمزيد من الاستكشافات العلمية لخدمة الإنسانية وتقدمها وراحتها، وليس التخلف والتقاعس والاتكال على الآخرين والدعوة للرجوع إلى أفكار أكل الدهر عليها وشرب، إن الوقت وقت العلم والشهادات والتميز في كل شيء، إنه وقت (التكنولوجيا). قال محمد ذلك وهو يحاول أن يتشدق بما يمتلك من شهادة ..

إلا أن الشيخ (يوسف) فهم جيداً ما قاله بن صالح، وبقي ممسكاً بالدفة وهو الواثق الموقن أن ما قاله بن صالح ليس بالجديد أبداً ولم يأت من فراغ وأن السنين التي قضاها بن صالح في أحضان الغرب لابد أن تترك أثراً في شخصيته، وربما كان الأمر أشد من ذلك ويكون الرجل قد تبنى فكرهم، ولربما حصل الأسوء من كل ذلك فجندوه وأعادوه إلى بلده ليقوم بدور قد رسم له، وليس ذلك بمستبعد، فالشيخ يعلم جيداً ما يجري على الساحة العالمية والحرب التي يشنها الغرب على الإسلام، فلهم تاريخ طويل أسود في ذلك من أول بزوغ فجر الإسلام كمنهج للحياة، ومروراً بما

جرى في الأندلس من تطهير لكل ما يمت للإسلام بصلة، والحملات الصليبية التي تتابعت منذ القرن الخامس الهجري، ثم التكالب على إسقاط الخلافة الذي نتج عنه احتلال للعالم الإسلامي، وتفتيت لأراضيه وتجزئة وحدته، وجعل الأمة الإسلامية الواحدة مجموعة من الدويلات الضعيفة والمتصارعة فيما بينها إلى يومنا هذا، ثم احتلال بالحديد والنار لأراضيه وترابه مع جرائم وفظائع ارتكبت وما زالت ترتكب وسوف تظل ترتكب بلا هوادة، كل ذلك خير برهان على مخازي نياتهم وقبيح صنيعهم وحقدهم الأسود على الحضارة الإسلامية العظيمة، وعلى ما يؤمن به المسلمون المؤمنون، وهو غيض من فيض من نتاج ظلمات الكفر بالله والصدِّ عن سبيله، يقع في كل زمان مادام الحق والباطل فيه يتنازعان ويتصارعان ويتراشقان، وتلك سنةالله في خلقه، بل وهم يتلقفون كل عميل يمكن استخدامه ويغدقون عليه بسخاء لتنفيذ كل ما من شأنه زيادة الخناق على دين الله العظيم وضربه وتحطيم صورته أمام الناس، أو شغلهم وصرفهم عن دينهم، وربما كان بن صالح منهم .. فأراد الشيخ أن يصحح بعض المفاهيم لديه فقال:

ـ يا ولدي أرجو أن تعلم أن هناك حرباً شعواء تتصاعد يوماً بعد يومٍ وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة، حرب مدمرة و متجددة

ومخطط لها بحنكة وحبكة عبر الأزمان على ديننا الحنيف بكل أركانه بل بكل تفاصيله، وعلى حضارته الراشدة بكل جوانبها، وعلى رجاله ودعاته من قبل أعدائه، وأعداؤنا يا بُني كُثر، متنوعون ومختلفون ولا يجمعهم جميعاً إلا العداء للإسلام، في وقت يعيش فيه المسلمين انحطاطاً لم يشهد تاريخهم المجيد مثله، والسبب هو تخلي المسلمون عن أساسيات ومبادئ دينهم، وانشغالهم بالاحتراب فيما بينهم وتسفيه بعضهم لبعض وانصرافهم إلى الجزئيات والفرعيات وترك الأساسيات والكليات، فقد انقضَّت الأمم على أمتنا وتداعت عليها كأنها قصعة تأكل خيراتها و تنهب وتبدد ثرواتها وتمزق أوصالها، و تمتهن رموزها وعقائدها، وتنفق في سبيل ذلك الوقت والجهد والأموال، وتعد لذلك الجوائز وتضع لذلك الخطط اللازمة، بل وتدعم بسخاء كل شخص يمكن استخدامه لتنفيذ كل ما من شأنه أن يضرَّ بدين الله العظيم ورجاله وحملته ولو بشيء يسير،و كم أقاموا محاكمات شكليه جائرة لأبناء المسلمين يوم احتلوا بلادنا، لقد هتكوا ستر الحرائر، ولفقوا التهم للمسلمين بأدلة دنيئة وحقيرة، وبأساليب رخيصة ما أنزل الله بها من سلطان، وكانت المخططات والتنفيذ على مستوى الدول وليس الأفراد والمؤسسات فقط، بل ودمروا الإنسان وحطموا كرامته وكبرياءه، وأقاموا سجوناً سرية لا يعلم مكانها

إلا الله سبحانه وتعالى، ووجهوا تهماً وأباطيل كاذبة وافتراءات عجيبة بحق الإسلام على مر الأزمان فاقوا بها حتى الشيطان، ولم يدعو مناسبة تمرُّ دون استغلالها للطعن والتشهير بالإسلام والتقليل من شأنه، وبكل الأشكال وبشتى الطرق، وجندوا لذلك آلاف المتطرفين والحاقدين من رجالهم واستخدموا كل الوسائل المتاحة، وما تخفي صدور القوم أكبر من ذلك، بل أكبر بكثير، حقداً وضغينةً وحسداً أن كرمنا الله بهذا الدين العظيم (الإسلام) ورفع شأننا بين الأمم، وأضحت صورتنا وديننا وبلادنا مستقلة زاهية مشرقة، ومن سنن الله في الكون يا بني سنة التدافع والتصارع بين الحق والباطل منذ قيل لإبليس اسجد لآدم فأبى، بدأ الصراع والتنافس بين القوتين، وانطلق كل منهما وشمر عن ساعد الجد، يشحذ الهمم ويسخر الطاقات إلى يومنا هذا، ولم ولن ينتهي حتى قيام الساعة، وهنا تتجلى المعركة على ساحة مترامية الأطراف هي ساحة الحياة الدنيا، فيموج الناس في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات المختلفة وبشتى والوسائل والمسالك والأساليب، منها حقيرة دنيئة وأخرى زكية عظيمة عالية قيمة، ومن ورائها جميعاً تلك اليد الحكيمة المدبرة القادرة القاهرة، يد الله سبحانه وتعالى، تمسك بالخيوط جميعاً فلا يحدث شيء مهما كان كبيراً أو متناهياً في الصغر إلا بمشيئة الله وحده وعلمه، وهو وحده

من يقود الموكب المتلاطم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف .. قال تعالى: ﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أي لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل الفساد بأهل الإصلاح فيها، لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين، وأوقعوا بهم وقتلوهم أو أذلوهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فكان من فضل الله سبحانه وتعالى ومنته على الناس جميعاً أن أذن لأهل دينه، أهل الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين بعدمعاناة كبيرة وأيام عسيرة مظلمة مدلهمة عاشتها الإنسانية،فأهل الحق حربُ أهل الباطل في كل زمان ومكان، والله ناصرهم ما نصروا الدين وأرادوا الإصلاح في الأرض، فهذه إشارة إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق والاستمرار في ذلك مهما كان الثمن وأياً كانت النتيجة، وأنه ينتهي ببقاء الأمثل، وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح، وهو واقع ملموسٌ وثابت على صفحات التاريخ الذي سجل وسيسجل كل الحوادث، وخاصةً منذ بزوغ فجر الإسلام كرسالة ربانية لواقع فاسد مؤلم، حيث نجد العديد من صور ذلك التدافع بين الفريقين، ونلاحظ له آثاراً كبيرة نتج عنها العديد من التغيرات

الجذرية في التنازع على سيادة الأرض واستغلال ثرواتها واكتشاف خيراتها، بل وفرض الأفكار والمعتقدات على سكانها في كثير من الأوقات بالحديد والنار، من قبل العقائد المخالفة للإسلام، وتحدث تلك التغيرات عند حدوث نقطة تقاطع بين الحضارات وتأثُّر إحداها بالأخرى أو اضمحلالها مع الأيام . ولم يكن الدافع عند غير المسلمين لما سميناه بالتدافع من أجل عقيدة دائماً، فربما كان من أجل ثروات أو أطماع توسعية وما إلى ذلك بينما بقي الإسلام ثابتاً كعقيدة وإيمان، وهذا هو الفرق الجوهري بيننا وبين الغرب في التدافع، إن ما دفع الغرب ليحمل سلاحه ضد الإسلام منذ البداية هو استعادة حضارة قديمة لمجدها من جديد من عقيدة فرضت نفسها كمنهج للحياة، وهو المكان الطبيعي لمنهج عظيم كان بديلاً ناجحاً عن الحضارة الغربية وأقصد الإسلام عقيدة ومنهجا، وما قوله ﷺ: «حتى لو دخلوا جحرَ ضبٍّ لدخلتموه» إلا دليل حدوث التبعية والانقياد للغالب، والتأثُّر من قبل المغلوب لذلك بقي الغرب وسيبقى يحاول أن يجعل تبعية العالم الإسلامي له، وما شهدت الأرض مذ خلقها الله عز وجل حضارةً فيها من كمال الدين وتمام الأخلاق وعلوِّ الأفراد مثل حضارة الإسلام العظيم دين الله الذي أكمله ورضيه لنا ولن يرضى غيره لنا ولا لغيرنا، فتقلدت الدولة الإسلامية زمام القيادة

وانقادت حضارات الدنيا راضيةً ومكرهةً تتتلمذ على يد الحضارة الإسلامية .ولم يكن ذلك إلا لسموِّها لكمالها وعظمتها وأحقيتها، ومن يقلب تاريخ الإنسانية بعين الإنصاف والعدل يجد أن الإسلام جاء والإنسانية متعبة ومنحدرة قبل مجيء الإسلام بقرون طويلة، وما على وجه الأرض قوة تأخذ بيدها وتمنعها من التردي، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها وتخبطها بين دياجير الكفر وطلاسم الجهل وظلمات التناحر والتشرذم والضلال، حتى منَّ الله على البشرية جمعاء ببعث نبيه ﷺ نوراً للأرض من بعد ظلمة ؛ وعدلاً لها من بعد جور وغيثاً لها من بعد جدب وأملاً لها من بعد يأس، وقوة لها من بعد ضعف ورحمة من بعد ظلم . فأخرج الله الناس بالإسلام من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وقالها ذلك الرجل الصحابي المبارك واسمه (ربعي بن عامر) يوم كان مع الوفد الإسلامي إلى كسرى طاغية فارس قبل موقعة القادسية الشهيرة.. سأله كبير فارس..

ـ ما جاء بكم إلى أرضنا ؟

فأجابه ربعي : (جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة)، وضرب المسلمون أروع الأمثلة في الصبر والتضحية والثبات والأخلاق، بل المثالية في الأخلاق

فكانوا كالكواكب تدور في فلك نبيها ؛ والناسُ لهم توابع كالأقمار! وكان الفتح المبين والنصر العظيم وانتشر الدين المتين فظهر المسلمون وتزعموا العالم وتلقف الناس الإسلام بكل ما أوتوا من قوة ؛ وعزلت الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها وانحرفت بها إلى مهاوي الضلال والرذيلة واستعباد الناس، وسار الإسلام بالإنسانية سيراً واضح المعالم متزناً عادلاً نقيّاً، لم تُشبْه شائبة ولم تُعِبْه نائبة، وقد توفرت في المسلمين الأوائل الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلّهم وتحت قيادتهم ..

وأمام هذا المشهد العظيم والدور الايجابي الكبير للمسلمين تجمع الكفر تحت شتى الرايات وشتى الفلسفات والعقائد، واضطر الإسلام للمنازلة في أكثر من مكان وأكثر من زمان،إذ التقت سماحة الإسلام ونوره مع طغيان الكفر وظلمته في القادسية واليرموك وعين جالوت وأجنادين وغيرها، وفي كل الأحوال لم يكن الإسلام بادئاً بل هم من بدأ بالتآمر والتحريض والإفساد والاعتداء، واندثرت على يد المسلمين في حقبة القادسية واليرموك حضارتان سادتا الأرض قروناً فرضختا وكسرت شوكتهما، لتخرج للأرض حضارةٌ لم و لن يعرف البشر مثلها على الإطلاق، بدأت معالمها من تلك الأيام العظيمة، فجنود الإسلام

ما أشهروا سيوفهم إلا في وجه وقف ضدّ انتشار الإسلام أو اعتدى على أرضه أو أبنائه، فدفعت سماحة الإسلام الناس كل الناس بما فيهم أبناء الحضارات العريقة لإعلان التوحيد للواحد الديان، والكفر بالنار والصلبان، وبقيت جماعات من تلك الأمم على دياناتهم فلم يُفتنوا فيها رغم بطلانها، بل وعاشوا في مواطنهم نفسها بلا إكراه على دين تحت راية الأمة الإسلامية..

وذكر التاريخ أن كثيراً من غير المسلمين قد تقلدوا مناصب إدارية لها قدرها وخطرها في الحكومات الإسلامية المختلفة، كما ثبت أن المسلمين في كل العصور سمحوا لمن يدينون بغير الإسلام أن يمارسوا شعائر دينهم بحرية تامة، وهذا يؤكد أن الإسلام لم يكن بحاجة إلى القوة أو السلاح لكي ينتشر، فقد مهدت له عقيدته و طبيعته وأحكامه وتعاليمه وسماحته الطريق إلى قلوب الناس وعقولهم، إذ لم تكن حضارة الإسلام مادية بحتة كما هو الحال في حضارة هذا الزمان التي تشبع مطالب الجسم على حساب مطالب الروح، ولا العقائد التي تدعو للروح فقط،ولكنها قامت على أساس الفهم الدقيق لطبيعة الإنسان في الجانب المادي والجانب الروحي، كما وازنت بين متطلبات الدنيا واحتياجاتها والتزامات الآخرة وأهميتها،وأيضاً فإنها وضعت الأسس العلمية بين التقدم

المادي والتقدم الروحي، ودعت إلى العمل الجادِّ من أجل الدين والدنيا معاً، ومن هنا سادت الحضارة الإسلامية العالم الإنساني حيناً من الدهر فبعثت الطمأنينة في كل نفس، وألهبت حرارة الإيمان في كل وجدان، وفرضت السلام بالحق والعدل، وأرسلت هديها وتعاليمها وثقافتها إلى أمم العالم التي استنارت بمشاعل العلم والإيمان ..

لقد عاشت الإنسانية صراعاً طويلاً ومريراً بين تسامح شامخ يمثل حضارة الإسلام وإشراقها وبين حقد أسود يمثل حضارة الغرب وظلامها، إن عظمة هذه الحضارة وعنفوانها وإشراقها وسيادتها دفعت أرباب أهل الكفر من اليهود والنصارى ومن شايعهم على مر الزمان للبحث عن كل ما من شأنه تشويه صورة الإسلام بين أهله ومعتنقيه لتشكيكهم في دينهم، وبين الآخرين من غير المسلمين لصرفهم عن الدخول فيه، فظلوا عبر العصور وتوالي الدهور يختلقون الأحداث، ويصنعون الشبهات، ويذيعون الأكاذيب والافتراءات فالإسلام ليس كفراً كما صوره المغرضون القدامى، وليس إرهاباً كما يصوره المغرضون الجدد، ولا قصيدة شعر أو قانون وضعي يقرؤه القارئ بلا فهم ولا وعي ثم يصدر عليه أحكاماً مسبقةً ظالمة، إنه الدين الواقعي العملي الذي يقدم للإنسان نظاماً كاملاً شاملاً لحياة إنسانية كريمة عزيزة

بكل مقوماتها واحتياجاتها، وليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن الناس. فقد وصل الإسلام إلى الصين والهند، وانتشر فيما بينهما من البلاد، ثم استمر بالتقدم حتى وصل أفريقيا وأوروبا ومنها اتجه إلى أقصى بقاع الأرض في هدوء وسلام، ولم يستعمل سلاحاً، ولم يرفع سيفاً كما فعل الأوربيون حتى مع أمثالهم من الدول الغربية حين يغزو بعضهم بعضاً بأسلحة الدمار الشامل وبمعدات الموت والهلاك، ويفرضون مناهجهم على أهلها بالعنف والقوة والإكراه، وكما فعلوا من قبل في الأندلس عندما أجبروا شمس المسلمين أن تغرب عنها، فقد حُرِّم الإسلام على المسلمين، وفرض عليهم تركه، كما حُرِّم عليهم استخدام اللغة العربية، والأسماء العربية، وارتداء اللباس العربي، وكل شيء له علاقة بالعربية من قريب أو بعيد ومن يخالف ذلك كان يحرق حيّاً بعد أن يعذّب أشد العذاب، لقد كانوا يعرفون بيت المسلم من كمية المياه التي كانت تخرج منه لأن المسلمين يهتمون بالنظافة، تخيل يقتلون من يتسم بالنظافة ويستخدم الماء بكثرة، أي حقد أسود هذا؟ بل إن الإسلام أسس مبادئَ وآداباً وضوابط للحروب والغزوات لم تعرفها الأمم مسبقاً، من الرحمة بالأسير والنهي عن التمثيل بالمقتول وقبول الفداء للأسرى، وعدم قطع الأشجار وعدم تهديم البنى التحتية والخدمات للبلاد، وحرم قتل الشيوخ والنساء

وهَدْمَ الصوامع ؛ لأن أبناء الإسلام بناة و منقذون ومصلحون لا مفسدون ولا مخربون،وصانعون للحياة وليسوا مدمرين ومهدمين، حتى في جانب الأسرى كان المسلمون حتى اليوم يرعون للأسير حقوقه ولا يحملونه إلا بمقدار جرمه ووزره، فلم نسمع أو نقرأ أن جنود الإسلام قد أقاموا المعتقلات، وصنعوا الأغلال والأصفاد للأسرى ؛ لاستجوابهم والتحقيق معهم والتنكيل والتشهير بهم وفضحهم، بل كان الأسير عند المسلمين يظل له كيانه الإنساني وحقوقه الفطرية من المطعم والأمان والكساء والدواء، اذهب يا بني وأقرأ كتب التاريخ .. تاريخنا نحن، ومن أقلام المؤرخين الغربيين أنفسهم هل ستجد في تاريخنا اسم سجن أو معتقل أقمناه للتحقيق والتعذيب، أو جزيرةٍ في أقصى الأرض حشرنا فيها البشر كالحيوانات في قفص من الأغلال! أو قوانين سرية شرعناها لاعتقال الآمنين وتعذيبهم وهتك أستارهم وانتهاك أعراضهم ومصادرة أموالهم كما يفعلون هم بنا؟ على الرغم من أن الأعراف البشرية تسمح بذلك إلا أن المسلمين لم يفعلوا ذلك وتنزهوا عن هذه الأعمال المشينة ..!

إن اتهام الإسلام أنه انتشر بالسيف فيه تكذيب واضح وهو اتهام باطل، وتعدٍّ سافر لحقائق التاريخ ومسلَّماته ؛ وما صدرت تلك التهم إلا نتاج حقد دفين ما وسع القوم أن يكتموه، إذ إن

ذلك يتعارض مع قول الحق سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فالدين هداية اختيارية للناس تُفرض عليهم مؤيدة بالآيات وبالبينات، وأن الرسل لم يُبعثوا جبارين ولا مسيطرين، وإنما بُعثوا مبشرين ومنذرين. ومن الظلم أن استغلال مواضع دافع فيها الإسلام عن نفسه في معارك معينة ومشهودة في التاريخ وربطُها بانتشاره، إنه لمن الإساءة للإسلام والتجني عليه أن يجعل الإكراه سبيل الإيمان به أو قبول دعوته والاستجابة له، والتاريخ أكبر شاهد وأصدق دليل على أن الذين آمنوا بالنبي ﷺ ما آمنوا به خوفاً منه أو رهباً من سلطانه، وهو الذي لا تسنده قوة مادية أو يدعمه جيش قوي أو تقف معه قرابة تحميه، بل آمنوا به على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين بل وحتى الأقرباء، بل إن بعضهم هو من قدم للمسلمين الدعم المادي والحماية بعد إسلامه وليس العكس..

ولم يُكره أبناء الإسلام أحداً على دخوله على مر الزمان، بل ضربوا للبشرية دروساً لا مثيل لها في التسامح واحترام النفس الإنسانية بغض النظر عن معتقداتها.

حتى إن القرآن اعترف بأهل الكتاب - أصحاب التوراة والإنجيل - وترك لهم حرية الاختيار بين ما هم عليه من معتقدات وبين الدخول في الإسلام وأجاز للمسلمين التعامل معهم

والتعـايش وحـتى الـزاوج مـن نـسائهم[١] ، وسـمح المـسلمون للنصارى بعد فتح الشام ومصر بإقامة الكنائس فضلاً عـن تـرميم وإصـلاح الكنـائس القديمـة، ألـيس ذالـك أبلـغ دليـل عـلى روح التسامح والمسالمة التي عُرف بها الإسلام في معاملته غير المسلمين، ومن هنا سجل التاريخ قول بعض المستشرقين: لم نجد فاتحاً أرحم من العرب! هذه أقوالهم وشهادتهم هم لا غيرهم.. لا كما مارسه ويمارسه أهل الصليب ومن شـايعهم مـن ملـل الكفـر عـلى إكـراه الناس وفتنهم في دينهم، وما لم تعرفه البشرية مـن صـنوف التمييـز بـين النـاس في بلـدانهم، وفظـائع الحـروب بحـق الأبريـاء والعـزل والأطفال والنساء، ورحلات التبـشير وحمـلات التطهـير العرقـي وجرائم التعذيب والتنكيـل بحـق الأسرى ومحاولـة طمـس الهويـة الإسلامية لكثير من البلاد الإسلامية.

على الرغم من إن الإسلام صاحب الفضل الأكبر على الغـرب لأنهم عاشوا في قرون مظلمة تحكمهم إما الكنيسة فيعيشون تحـت وطأة رجال الدين وتسلطهم على رقابهم يـذوقون مـرَّ المعاملـة، أو تحت وطأة رجال الطبقة الـشريفة (النـبلاء) فيـستعبدونهم، حـتى جاء الإسلام وتعلموا منه معنى الحرية والحضارة..

---

(١) أجازت الشريعة الإسلامية زواج المسلم من الكتابية ولم تجز العكس.

ومع ذلك كله فالإسلام أسرع الأديان انتشاراً في الأرض، إذ لا يختلف اثنان من المحايدين على أن الإسلام صار يشكل صحوة كبيرة في الغرب فنسبة معتنقيه في ازدياد مستمر تفوق من يعتنقون ديناً آخر، وقد شملت مختلف أوساط المجتمع الغربي، وقد أخذ المسلمون على عاتقهم عهداً في طريق سيرهم الطويل والصعب أن يسلكوا هذا الدرب كقناديل مضيئة وإن اشتد واحلولك ظلام الليل دون أن يبالوا بالمصاعب والعوائق والأدعياء، وقرروا أن يعبروه وإن تكالبت عليهم الأمم ..

لا يغرنك يا ولدي أني أعيش في قرية نائية لم تصل اليها أبسط أمور المدنية الحديثة، أنا بحمد الله واعٍ وأعرف ما يجري للإسلام في العالم .. كما أن الصحوة الإسلامية منتشرة في بلدان المسلمين رغم كل ما يجدونه من تضييق في الداخل وعداء من الخارج، وذلك كله وغيره تأكيد أن التدافع ما زال قائماً وسيظل حتى يظهر الحق على الباطل ..

كان محمد بن صالح يستمع إلى الشيخ بإعجاب شديد وبالفعل كانت الأسئلة تدور في ذهنه .. كيف لهذا الرجل في هذا المكان المنقطع أن يعرف كل هذا .. لقد تسنى لمحمد أن يطلع على بعضه بحكم وجوده في بلاد الغرب، وقد اقتنع بكل حرف قاله الشيخ (يوسف) ووجد أجوبة شافية لكل الأسئلة التي كانت

تدور في ذهنه .. ولكن رغم ذلك أخذته العزة بالإثم فقال :

ـ والمرأة، أين حقوقها في الإسلام؟ ما مكانة المرأة؟ ألم يجلسها الإسلام في بيتها ويحتقرها ويجعلها كرهاً تحت الرجل؟ أليس شغلها الشاغل غسل الأواني وإعداد الطعام وتنظيف المنزل؟ قالها بتهور وانفعال شديدين خرجت هذه الأسئلة بسرعة من محمد بن صالح .. ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة وقال :

- يا ولدي إن صفحات التاريخ الإسلامي زاخرة بأسماء لنساء من أمة محمد ﷺ، منهن صحابيات وأخريات لسن كذلك ولكنهن اقتربن كثيراً من هذه المنزلة، لقد سطرن مواقف رائعة بالفعل يعجز الرجال عن الإتيان بمثلها، مواقف أشبه ما تكون بالخيال، وسأنتقي لك نماذج لنساء من أمتنا ومن جلدتنا ربما لم يسعفك الوقت والظرف لتسمع بهن، وأعتقد أن هذه الفرصة المناسبة لأمثالك،إنما يزيد من شرف نساء هذه الأمة أن يكون عدد النساء اللاتي هاجرن في سبيل الله سواء إلى الحبشة أو إلى المدينة المنورة ستّاً وستين امرأة وهو عدد كبير إذا ما علمنا أنّ مجمل المهاجرين في عهد النبي ﷺ ثلاثمئة وأربعة من النساء والرجال؛ أي: ثلث أصحاب القضية من النساء في وقت لم يكن هذا الأمر طبيعيّا على الإطلاق لا من حيث المكان ولا الزمان ولا العرف الاجتماعي ..

وحين نستذكر نساء غلبن الرجال لابد بل من الواجب أن نستذكر السيدة الكريمة صاحبة المكانة الاجتماعية العالية والحسب والنسب خديجة بنت خويلد، المرأة العاقلة والتاجرة الذكية المحنكة، وأنت تعرفها بالطبع ... نعم الكل يعرفها ويعرف مواقفها مع النبي ﷺ حيث كانت الزوجة الحانية والقلب الدافئ والأنيسة الصادقة، حملت معه أعباء الدعوة ومشاقَّ إبلاغ الرسالة، وواسته بنفسها ومالها، لذلك فقد أخلص لذكراها حتى بعد مماتها، ثم عائشة بنت الصديق حاملة علم النبوة، وربما حرمها الله سبحانه وتعالى الذرية من أجل التفرغ للعلم واستيعابه وامتلاك أدواته، لأن العقل البشري لايحتمل الكثير من ضغط الحياة وتربية الأولاد، لذلك بقيت كل ذرة من عقل السيدة عائشة صافية لله ومهيأه لاكتناز جزء من العلم، وقد كانت رضي الله عنها عالمة بالشعر، كما ويسألها كبار الصحابة عن الفرائض فتجيبهم، ثم فاطمة بنت محمد ﷺ التي بدأت المشوار مع أبيها وتحملت الأذى معه وسارت في الطريق الذي سلكه يداً بيد وخطوة بخطوة حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ثم لا تبتعد عنه كثيراً إذ تلحق به إلى الرفيق الأعلى بعد ستة أشهر فقط من وفاته، ثم أسماء بنت أبي بكر الصديق (ذات النطاقين) التي روت عن رسول الله ﷺ ستين حديثاً وكانت ذكية ناطقة بالحق، ربَّت ابنها عبدالله بن الزبير أيَ

تربية حيث كانت قد هاجرت إلى المدينة وهي حامل به و يالها من هجرة! امرأة وحامل ومهاجرة، وكانت قد شهدت معركة اليرموك مع زوجها وابنها وعاشت بحدود مئة سنه محتفظة بعقلها، أما الشفاء بنت عبد الله القرشية فهذه صحابية كريمة بل من فضليات النساء، وكان الرسول ﷺ يقيل عندها، وكان عمر بن الخطاب يسمع رأيها ويستشيرها، وقد ولاها أمر السوق ومراقبته، وربما نجد تسمية ملائمة لوظيفتها في خلافة عمر بن الخطاب أنها (وزيرة الاقتصاد) وكانت تتجول وتراقب أمر السوق وكل ما فيه من مفردات فتنقل الأمر بأمانة إلى أمير المؤمنين عمر وتقدم له المقترحات العلمية في الاقتصاد وبأمانه كمستشارة مؤتمنة .. كما وأن المرأة تعرف ببعلها، فأنت حين ترى رجلاً وتعرف صفاته وأخلاقه فليس بصعب بعد ذلك أن تعرف من تكون زوجته، فأين نضع ميزان عاتكة بنت زيد التي تزوجها عبدالله بن أبي بكر ثم مات عنها فتزوجها زيد بن الخطاب فمات عنها فتزوجها عمر بن الخطاب ثم بعده تزوجها الزبير بن العوام ثم خطبها علي بن أبي طالب لكنه لم يتزوجها، لاشك أنها امرأة من العيار الثقيل وإلا لما تقدم لها هذا النوع من الرجال ..وهذا حال أسماء بنت عميس التي تزوجها كل من جعفر بن أبي طالب وبعده أبو بكر الصديق ثم علي بن أبي طالب .. وقد اشتغل نساء الصحابة

في كل الأمور التي تهم الإسلام ديناً ودولـة، ففـي الحـرب لاتكـاد غزوة من غزوات النـبي ﷺ تخلـو مـن اصـطحابه للنساء لمختلـف الأعمال، الطبيبة وساقية الماء وطابخة الطعام، ولم يمنعها ذلك من أن تحـول وظيفتهـا إلى مقاتلـة عنـد الحاجـة كمـا حـصل في معركـة أحد، كما اشتغلن برواية الحديث كما فعلت أم قيس بنـت محـصن وأم إسحاق الغنوية وأم عبد الله (زوجـة أبي مـوسى الأشـعري) .. أما أم جميل بنت المجلل وفاطمة بنت علقمة فقد أكرمهمـا الله أيمـا إكرام حين جمع لهما شرف الهجـرتين في الله إلى الحبـشة وإلى المدينـة المنورة، أما أم حـرام بنـت ملحـان فطلبـت مـن رسـول الله ﷺ أن تكون مع المجاهـدين الـذين يركبـون ثـبج البحـر (يـوم كـان يقيـل عندهم) فقالت يا رسول الله : ادع الله أن أكون منهم . قال : (أنـت من الأولين). وبالفعل ركبت أم حرام البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان مجاهدة مع المجاهدين فصرعت حين خرجت مـن البحـر .. وأما سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب واسمها (آمنة) فقد كانت مـن أهـل الأخـلاق والأدب والفـصاحة، وكانـت منزلتهـا الأدبية والاجتماعية عظيمة، وكـان يـسمع لقولهـا ورأيهـا الأدبـاء والشعراء ..أما زبيدة بنت جعفر بن المنصور فقد كانـت تنفـق عـلى أوجه الخير ما شاء الله، فكانت تنفق عـلى الفقـراء والعلمـاء، ولهـا آثار كثيرة في مجال الإنفاق في أوجه البر والتنميـة، ومـن ذلـك أنهـا

ساقت الماء أميالاً لتوصله بين الحل والحرم ووقفت أموالها على عمارة الحرمين .. ومن النساء اللاتي اشتغلن بالفقه سكينة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين المحاملي (أمة الواحد) وقد كانت عالمة فاضلة ومن أحفظ الناس للفقه الشافعي، وكانت تشتغل بالفتيا إلى جنب أبي علي ابن أبي هريرة، وكانت قد حفظت القرآن الكريم والفقه والفرائض على المذهب الشافعي، واشتغلت أيضاً بالحديث وروايته ..وهكذا فإن في تاريخنا نساء منهن التاجرة و الطبيبة والاقتصادية والمحدثة والعالمة والمفتية والمجاهدة، فأين أهل الغرب في هذا الزمان من هذا الفهم ؟ ... بل أين فهم أهل الإسلام من ذلك ؟

ـ قل لي بربك يا بن صالح من احترم المرأة أكثر ؟ نحن أم هم ؟ حين جعلوها تعرض جسدها في الطرقات بلا ثمن ..!!

بعد كل ما جرى من حديث شعر بن صالح أنه هزم ولا حول له ولا قوة .. فأراد أن يغادر .. فقال له الشيخ :

ـ إلى أين ؟ أنت لم تجبني ..

ـ عن أي شيء ؟

ـ عن الوعود التي وعدتها لأهلك وناسك ..

ـ كما قلت لك، الأمر يحتاج إلى الوقت والصبر فلا بد من الموافقات والتراخيص .. فرأى الشيخ أن الأمر قد انتهى ولا بد

من المكاشفة فقد حان أوانها فكلمه بنبرة المتمكن الواثق قائلاً:

ـ ولكن يبدو أن صناعة الخمر في أعلى الجبل لا تحتاج إلى التصاميم والأمور الأخرى التي تتكلم عنها، ولا تحتاج إلى رخص حكومية! وأعتقد جازماً أن موضوع الحضارة والتطور ليس له علاقة من قريب ولا من بعيد بما تتحدث عنه .. أليس كذلك؟

لمّا أدرك محمد بن صالح أن الشيخ (يوسف) قد علم ما كان يخفي من أمر الخمر أراد أن ينهي الحديث قائلاً:

ـ وما المطلوب مني؟.

استعاد الشيخ هدوءه المعهود وقال:

ـ دعني يا عزيزي أوضح لك أضرار الخمر الصحية أولاً ناهيك عن أن الله قد حرمها تحريماً قطعيّاً باتاً في كتابه القرآن الكريم، والمصيبة لم يُلعن شاربها فحسب بل عاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها وحتى جليسها.. فأخرج الشيخ ورقة من جيبه قد أعدها سلفاً وصار يقرأ ما كتبه لمحمد:

- فأنت تعلم أهمية القلب في جسم الإنسان، هذا العضو الحساس في جسم الإنسان والذي أودع الله فيه من أسرار خلقه ما شاء سبحانه وتعالى، لا يسلم من شر ذلك السم الخبيث (الخمر) الذي يؤدي إلى تعطيل وظيفته وإصابته إصابات بالغة، والمعلوم أن أي عطب ولو كان بسيطاً في هذا العضو قد يؤدي إلى الوفاة .إن

كل قطرة من الكحول يحتسيها الشارب تمر عن طريق القلب، ومع هذا المرور يزداد تأثر القلب، فيزداد نبضه ليعمل فوق طاقته، مما يؤدي في النهاية إلى إرهاقه وتعبه، ولقد كان الاعتقاد السائد إلى عهد قريب أن الخمرة تنفع في علاج بعض أمراض القلب مثل الذبحة الصدرية، وارتفاع الضغط وغيرها. ولكن بفضل الله اكتشف زيف تلك الأوهام مع تطور الأبحاث الطبية، لقد ظهر من خلال العديد من الدراسات أن الكحول يحدث خللاً في قدرة القلب على الانقباض ومن ثم انخفاض معدل ضخه للدم حتى في حالة عدم وجود أي أعراض مرضية في القلب . وإن الأوعية الدموية تصاب بالتصلب والضيق نتيجة لتراكم الدهون عليها فتفقد بذلك مرونتها التي وهبها الله إياها فتصبح جدرانها كثيفة وصلبة وقابلة لأن تنقصف لأول وهلة، كما يحدث للأنابيب المطاطية عندما تجمد وتجف. كما يسبب الكحول ارتفاعاً في ضغط الدم.وقد أثبتت الأبحاث العلمية دور الكحول في الإصابة بسرطان البلعوم، فلذا نلاحظ أن المدمن كثيراً ما يصاب بسعال دائم وبحة وخشونة في صوته، كما يتسبب الكحول بتأثيره السام في تقليل كمية الأوكسجين في الدم ورفع نسبة ثاني أكسيد الكربون، لذا نجد أن الرئتين تحاولان التخلص من هذا السم الخبيث، لهذا تشم رائحة الكحول في زفير السكير .. ويعتبر من

أهم المضاعفات التي تنتج عن تليف الكبد الناتج عن الإدمان على تعاطي الخمور، ومن أسباب حدوث نقص الأوكسجين، ولكي تتيقن يا ولدي من كل الذي قلته لك أذكر لك قصة مهمة وحقيقية وهي أن أكبر دولة مادية في العصر الحديث شرعت قانوناً بحظر الخمر وشربه ويفرض العقاب عليه، وتجنِّد هذه الدولة كل قواها البشرية والمالية، ووسائل إعلامها، وتفتح سجونها لملئها بالجناة الذين لم يستجيبوا لتطبيق القانون الذي صدر في ١٦ كانون الثاني عام ١٩١٩م .. وسبق المنع حملة واسعة من التوعية في جميع وسائل الإعلام والمدارس والمصانع، وصار تدريس أضرار الخمر جزءاً من المواد الدراسية التي يدرسها الطلبة في الابتدائي والثانوي والجامعة.. وبذلت جهوداً جبارة في التوعية، حتى لقد كتبت أكثر من تسعة ملايين صفحة تبين أضرار الخمر الطبية، والاجتماعية، والأخلاقية.. وبلغت تكاليف الحملة الإعلامية مئات الملايين من الدولارات.. ولكن لم يكن يمضي على إغلاق الحانات ومصانع الخمر أيام قلائل إلا وابتدأت تنتشر آلاف الحانات السرية .. وفي غضون أشهر قليلة زاد شاربو الخمر عمّا كانوا عليه قبل المنع .. وقدّم إلى المحاكمة ملايين الأشخاص .. وسجن ما بين عام ١٩٢٠ و١٩٣٣ نصف مليون شخص، لإدانتهم بشرب الخمور والاتجار بها أو حيازتها، وقُدِّم إلى القضاء في تلك الفترة مجرمون

عتاة ارتكبوا جرائم مروعة بسبب الخمر، وقد أدانت المحاكم الكثير منهم، وحكمت على مئات منهم بالإعدام، لجرائم متعلقة بالخمور، كما قامت الحكومة بمصادرة أملاك ومصانع الخمر السرية، وبلغت قيمة الأموال المصادرة مئات الملايين من الدولارات.. بعد هذا العرض المفصل أكمل الشيخ حديثه قائلاً:

ــ أكيد أنك تريد أن تعرف من هذه الدولة!!

كان محمد بن صالح مندهشاً ومتعجباً في نفس الوقت، ومن دهشته كأن لسانه قد التصق في فكه الأعلى فلم يستطع أن يتكلم ولكنه أومأ برأسه .. بنعم .. وهو ينتظر الإجابة بشغف ..

ـ إنها الولايات المتحدة الأمريكية .. ثم أكمل الشيخ:

ـ يا عزيزي إن الله قد أسبغ نعمه ظاهرة وباطنه وقد عاش الناس ههنا منذ سنين طويلة يهنؤون بحياة سعيدة رغيدة ، لا يكفرون بنعمة الله التي أنعمها عليهم بل كانوا إلى ما قبل مجيئك يرعون هذه النعم حق رعايتها بحسن عبادتهم لله سبحانه وتعالى وتمسكهم بأخلاقهم وابتعادهم عن اللغو واللهو، فحق فيهم قول الله عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. أما الآن يا ولدي فقد صار أهل القرية إلى اللهو أقرب منهم إلى الطاعة، تركوا أخلاقهم بابتعادهم عن دينهم وكفروا بنعم الله

بسوء عبادتهم له، لأن الله تعالى يقول: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[النحل: ١١٤]..

فكفران نعم الله سوء في العبادة، ولقد رأيتك يا ولدي وبعض الشباب بأم عيني تشربون الخمر في أعلى الجبل الحنون واني لا أرى في القرية إلا قول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢] وإني أخشى على قريتنا التي عشنا عمرنا بين حناياها، صواعق السماء المحرقة بسبب الذي تفعله أنت وبعض شباب القرية، فأرجوك يا بني أنقذنا وأنقذ نفسك وتخلص من البيانو اللعين وأقلع عن شرب الخمر، وتعال إلى المسجد بيت الله كما كنت تفعل عندما كنت صغيراً.. أتذكر ذلك يا عزيزي؟ لابد أنك تتذكر بلا شك..عد إلى الله يا ولدي قبل أن يدهمك هادم اللذات وأنت لا تشعر فتموت وأنت تارك للصلاة ومدمن على الخمر ، فيسقيك الله عصارة أهل النار ، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنه دخل على أمّ المؤمنين عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة فقالت: إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل في سمائه فقال للأرض تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا وإلا هدمها عليهم، قال يا أم المؤمنين:

أعذاباً لهم؟ قالت: (بل موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرين»[١] .

ثارت ثائرة محمد وأخذته العزة بالإثم ونخر في وجه الشيخ نخرة الحمار الوحشي وقال:

ـ لن أفعل الذي تصبو إليه حتى إن كلفني ذلك حياتي ..

ـ تعرف يا ولدي ما يمنعك من الاستجابة والعودة؟ إنه الغرور القاتل، ذلك المرض الخبيث الذي جعلك تفقد توازنك وتقيم نفسك تقييماً بعيداً عن الواقع، وتذكّر أنَّ الغرور والتكبّر خلق شيطاني بغيض، يبدأ بخطوة أولى صغيرة .. إعجاباً بشيء بسيط .. ثمّ ينمو ويتدرج ليصبح إعجاباً بكلّ شيء، وإذا هو الغرور والخيلاء والاستعلاء والتكبّر وبالتالي فأنت تنظر لنفسك نظرة إكبار وإجلال وتنظر إلى الآخرين نظرة ازدراء واستصغار، مما لا يتيح لك أن تتبيّن النقائص والمساوئ التي في شخصيتك، فتبتعد عن الحقيقة وتبني في خيالك شخصية مزورة في عالم الخيال وليس الواقع .. فالغرور يمنعك من التطور في بناء شخصيتك وفي عطائها .. ولا يغرنك تجمع الناس من حولك هذه الأيام، هذه نزوة عابرة ليست حقيقية ربما لأنها شيء غريب لم يألفوه سابقاً

(١) أخرجه نعيم بن حماد في كتاب "الفتن" (٢/٦١٩)، وذكره ابن القيم في "إغاثة اللهفان" (١/٢٦٤).

وربما هو نزعة الشيطان في داخل الإنسان في محبة اللهو .. فالناس بطبيعتهم يمقتون وينفرون من المغرور . وهم ينظرون نظرة دونية احتقارية للمغرور، أي كما تُدين تدان، و المغرور يعيش منعزلاً لوحده وفي برجه العاجي بعيداً عن الخيرين من الناس ولا يستطيع أن يعيش أو يتجانس إلاّ مع ضعاف النفوس المهزوزين المهزومين، لذلك ستجد نفسك عما قريب معزولاً منبوذاً، والمغرور يا ولدي في العادة يطالب بأكثر من استحقاقه كما تفعل أنت اليوم، تريد كل الأشياء لك وحدك، تريد من الناس أن تتبعك وحدك بغض النظر عن كونك مخطئاً أو مصيباً، ولذلك فأنت تفسد الأمور كلها حتى استحقاقاتك .لقد وصلت يا بني درجة عالية من الإعجاب بالنفس والانبهار بالملكات والمواهب، وعليك يا بني أن تقدر نفسك وتعرف ثمن ملكاتك وتقيم أمور الدنيا من حولك لتنجح في هذه الدنيا. إن إعجابك بنفسك بهذا الشكل الملفت للنظر يمنعك حتى من أن تنظر إلى نتائج الأمور في المستقبل .. هل سألت نفسك إلى أين أنت آخذ بشباب القرية ؟

وما هي نتائج عملك هذا ؟

عموماً فالفرصة يا ولدي ما زالت قائمة، فهناك الكثير من المجالات يمكن اقتحامها كبديل عما تفعل يمكن أن ينتفع منها الجميع..

انصرف محمد بعد هذه المقالة باتجاه القرية مسرعاً وهو يردد ..

ـ أتخلص من البيانو!!! شيء يدعو إلى السخرية بحق، وكأن الشيخ لم يتكلم بهذا الموضوع وبكل هذه التفاصيل ..

جلس الشيخ (يوسف) متسمراً في مكانه بعد أن عقدت تلك النتيجة لسانه فانخلع قلبه أحقاً ما يحدث!!هل كل ما قاله كان هواءً في شبك؟ وبقي على صمته هذا و لم يقطعه إلا صوت حسن يؤذن لصلاة المغرب، وصوت المؤذن هذا يبعث في كل مرة التفاؤل في نفس الشيخ ويجدد الأمل في داخله.. استجمع الرجل قواه وانتفض كالأسد الهصور وهو يستعد لمعركة قادمة وشمر عن ساعديه وجعل يتوضأ من عين الماء وهو يقول أخشى أن لا نجد ماء نتوضأ به أو حتى نشربه من الذنوب، وما إن تم وضوءه وقد أسبغه يمم وجهه تلقاء المسجد للصلاة..

*****

في المسجد كان حسن ومجموعة من الشباب ينتظرون الشيخ على أحر من الجمر لسماع نتيجة اللقاء مع ابن صالح، وهم لديهم الظنون المسبقة بها .. وصل الشيخ إلى المسجد فلما أتم صلاته انبرى حسن قائلاً:

ـ بشِّر يا شيخ، ماهي النتيجة؟

ـ نحن نعمل متوكلين على الله والنتائج على الله..

فهم حسن ممن الإجابة وأن النتيجة لم تكن إيجابية فقال:

ألم أقل لك يا شيخنا إن هؤلاء لا ينفع معهم إلا الضرب بالعصي، ولكنه أراد أن لا يزيد من ألم شيخه وينكأ جراحاته، بل أراد أن يجدد الأمل في نفس الشيخ مرة أخرى فقال حسن وهو يكلم الشيخ:

ـ يا شيخنا نحن نرى على أَعتاب حوادث أَيامِ الدنيا عجباً، فعلى الرغم من كونهِا (دُنيا) ينظر الناظرون لها على أنهَّا (عليا)، ونحن جزء من حيثياتهِا، نحب ونكرهُ، فلا كلُّ ما نحب نجد، ولا كلُّ ما نكره نحن في مأمن منه، نحب الهداية لنا ولأحبابِنا لأنهَّا طَريق الله، ويكره البعض طريق الهداية، ربما لأنَّه يبعدهم عن الدنيا وعن ما فيها من مباهج وملاهي لأنها قصدهم ومبتغاهم، وعنِ من هم على شاكلتهم رفاق درب الهوى والوهم والسراب، فنحب الهداية ونَطمع أن نطالها فننعم بسعدها، ونَنهل من شَهدها ونذوق حلو طريقها ونَتمناها لمن نحب وهم بشر مثلنُا يُصيبون ويخُطئون،يسمعون ويُطيعون وربمُّا يترددون ويَتمردون، فمِنهم من يهتدي من رُؤيا صالحة يراها هو أَو تُرى له فيمسك بناصية الهداية لا ينفكُّ عنها، ويصول ويجول في عالمها الفسيح لا يلتفت إلى الوراء لأنَّه يعلم أنَّ كلَّ ما دونهِا تُرَّهات لا تستحق العناء والجهد، فهو على هذا الحالِ حَتى يلَقى الله، ومنهم من يهتدي من آية يسمعها من لسانِ داعية حاذقٍ فتَح الله عليه ونوَّر قلبه، أو

تصله عبر الأثير من فَمِ قارئ وهبه الله مزماراً من مـزاميرِ داود . . . فيمتَطي فرسه ، فهو فـارس لا يترجـل ، بـر ، ورع ، زاهـد ، مجاهـد ، فتأتيـه الدنيا وهي راغمـةٌ وتجثـو تحت قدميـه وتضع بين يديه فلذاتِ أكبادها وجـواهر ولآلـئ صـناعتها ترجـوه قَبولهُا ، فيقـف متمرداً ، ساخراً منها وهي خاضعةٌ متوسلة له تطلب رضـاه .. بـل مناها رضاه .. وهو بعنفوانِ إيمانه يركُل بقوة كل ما وضعته الـدنيا تحت قَدميه ثم يشيح بوجهِه عنها .. ومنهم من يهتـدي مِـن موقـف وربما من مشهد يعني له دَقة ناقوسِ الخطـر وهـو ينظر بعـينِ العبـد الفَقير ، المخلوقِ الضعيف لصديق أو حبيب أو رفيـقٍ وهـو يوسَّـد في التراب وكأَنَّ المشهد ضربةُ مِعولٍ للرانِ الذي تَكَدَّس على قلبه ، فيصحو صحوةَ الحق وتقذف في قلبِه بركـات ورحمـات ونَـسمات الهداية الربَّانية فيزهد في الـدنيا ومباهجهـا فيحبـه الله ويزهـد فيمـا عند النَّاسِ فيحبه النَّـاس .. وهكـذا حـال النَّـاسِ ، فنـاس ونـاس ، فمنهم من يحتاج لهنيهةِ زمـن ومـنهم لـساعة ومـنهم لجمعـةٍ وآخـر لشهر وآخر لسنة ، المهم أن يهتدي فيرتاح ويريح .. ولكن منهم من تكدَّس وتكلـس الـرَّان عـلى قلبـه فمـا عـادت تـؤثر فيـه الآيـة ولا المشهد ولا الموقـف ..ويبقـى هائمـاً وغارقـاً في ملـذات (دُنيـا) لا طعم ولا لون ولا رائحة لها .. أو ربمَّا فيها رائحة ولكنَّها رائحة نتنة تُزكم الأُنوف .. حتى يدهمه هادم اللذات ومفرق الجماعـات وهـو

على هذا الحالِ فيقال له .. قُل.. فيقول: وما أَقول .. فيقال لـه قُـل ؛ (لا إله إلا الله) فيندلع لـسانه ويخـرج عـن نطـاقِ سيطرتِه، فلَعلـه يقول كالذين قالَوا في سَكرات موتهِم وتأتؤوا بكلمات ما أنزل الله بها من سلطان ، ويتأثر أحبابهُم وتَسمع لهم ضجّةً ألماً عليهم ..

وهذه الساعة الوحيدة التي لا يَنفع معها نَدم، وهو المعني بالأَمر يقلّب نَظره فيمن التفوا حولَه ولِسان حالـــه يقول ؛ (يا لَيت الذي جرى ما كان)، والحقيقة الوحيدة التي يتأَسون بها قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[القصص: ٥٦]..

جاءت هذه الكلمات برداً على قلب الشيخ (يوسف) وارتـاح كثيراً إلى ما قاله حسن، وازداد يقينه أنه ما زال في الأمر متسع وأن حسناً مندفع بروح الشباب العاقل الواعي وليس المتهور .. وأعلن لمن حضر الصلاة أنه سيلقي على أهل القرية خطبـة عنـد عـين المـاء على الساحة الخضراء في اليوم التالي بعد صلاة العصر قائلاً:

ـ ليبلغ الشاهد مـنكم الغائـب، ثـم أمـر حـسناً ومجموعـة مـن شباب المسجد وهم قلائل بإبلاغ النـاس، وقـام بنفـسه يتنقـل بـين أهل القرية في بيوتهم ليبلغهم بالخطبة الموعودة عند عين الماء مؤكداً لهم خطورة الأمر الذي ستلقى من أجله الخطبة، فأما أهـل القريـة فقد علموا بالموضوع وقبلـوه عـلى مـضض ولـولا بقيـة حيـاء مـن الشيخ ما حضروا..

كانت الساعات تمر كالسنين على قلب الشيخ يوسف وكان الخوف قد دبَّ إلى نفسه من النتائج التي ستؤول إليها هذه القضية التي تفاقم خطرها وشرها، لأن فشل هذه المحاولة يعني أنه لابد من حل جذري وإن اقتصر عليه وعلى أهل بيته، وكان الشيخ لا يستطيع منع هاجس الهجرة من هذه القرية الظالم أهلها ..

انقضت ساعات تلك الليلة بطيئة ثقيلة لم تذق عيناه فيها النوم، وكانت من أشد الليالي في عمر الشيخ (يوسف) ولم يعرف الشيخ الراحة فيها أبداً، حتى إذا كان اليوم التالي وحانت ساعة إلقاء الخطبة، اجتمع الناس فقام الشيخ فيهم خطيباً وبعد أن حمدالله وأثنى عليه وصلى على نبيه ومصطفاه محمد ﷺ قال: يا أهل القرية، يا من تدعون أنكم آمنتم بالله تعالى فعبدتموه وصدقتم برسوله فاتبعتموه وسميتم أبناءكم باسمه وأسماء أهل بيته وصحابته ، يا من تدعون أنكم تؤمنون بلا إله إلا الله ، إن كان ادعاؤكم حقّاً وجب عليكم الإيمان بقدرة الله وعظمته، وهو تبارك وتعالى أجلُّ من أن يخلق الأشياء عبثاً أو لهواً حاشاه . فقد قال عزَّ شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] وإن البشر في هذه المعمورة هم خلق من خلق الله تعالى خلقهم وجعل واجبهم أن يعبدوه في أرضه، ويكونوا خلفاء فيها ليعمروها وينشروا فيها الخير، ونهاهم عن المنكرات والمعاصي

وحذرهم من الخوض فيما نهاهم عنه. ألا إنكم ستواجهون مصيركم وهذا لا ينتطح فيه عنزان ، وستقفون بين يدي ربكم وهو سائلكم عن أعمالكم في هذه الدنيا، وبعد السؤال ستحاسبون والحساب ليس بيسير إلا من يسر الله له ذلك، ثم إما روضة من رياض الجنة وفخرها وعزها، أو حفرة من حفر النار وهوانها وذلها، وذلك تمام قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١-٤٢].. ألا إن الدنيا زائلة وإن ملذاتها لا تعدل مثقال ذرة من نعيم الآخرة يقول الله جلَّ في علاه:

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]

بهذه الصورة تصبح الدنيا وزينتها في يد الإنسان لا في قلبه فيتخلص من عبودية المادة ويتحرر من كل ما يتعلق بالنفس من هذه الدنيا..

ـ أيها الناس: إن ما يجري لشباب القرية أبنائكم لا تحسبوه هيناً، وتظنوه أمراً يسيراً بل هو أمر عسير، فإنما أهلك الأمم السابقة ابتعادها عن دين الله تعالى وتمردها عليه وركونها إلى الدنيا

وشهواتها، وإن الله يقول في ذلك: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف: ٥٥]

ـ يا أهل قرية الجبل لقد كنا منذ أمد بعيد هانئين بنعم الباري الظاهرة والباطنة نتذوق حلاوة الدين والدنيا، ألا أخبركم لماذا؟

لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ [النور: ٥٥].

فبفضل من الله وحده تمت على أهل هذه القرية نعمة الدين والدنيا. ألا إنكم استبدلتم العممى ومرارته بالهدى وحلاوته، واشتريتم الضلالة بالهدى، وبعتم تبراً بأبٍّ، واتبعتم أهواءكم وتركتم عبادة من ترجون رحمته..

يا أيها الناس: أريد أن أذكركم بقول الله عزَّ وجلَّ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

أما والله لقد تغيرت نفوسكم وصغت إلى الملذات الفانية والدنيا الزائلة قلوبكم وإني لأخشى أن تنزل علينا صواعق السماء فتحرق الأخضر واليابس، وتأخذ الصغير والكبير، وتمحق

الطيبين بجريرة الظالمين، كما أهلكت الأمم من قبلكم عاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع..

وقول الله سبحانه وتعالى واضح جلي في ذلك ولا يحتاج إلى تأويل:

﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ـ أيها الناس: إن اختياركم طريق الضلالة بمحض إرادتكم، طريق الشيطان والتجارة الخاسرة ما هو إلا الانحدار نحو وادي الهاوية، وإني أحذركم في هذا

المقام عواقب ذلك، لأنكم إن متم مصرين على عصيان الله فإن مصيركم إلى النار التي قال فيها ربكم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]..

هذه وصيتي إليكم إن أخذتم بها نجوتم إن شاء الله وإن اتخذتموها ظهرياً فإن عذاب الله بكم نازل، وستعلمون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ثم قال: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.. على هذا النحو انتهت خطبة الشيخ، وانفض الناس من حوله سراعاً كل له وجهة هو موليها، وكأنهم مسبحة انفرط عقدها، الشباب منهم قاموا مسرعين بلا

تردد إلى بيت ابن صالح للاستماع إلى أنغام البيانو الذي تحرك أزراره أنامل محمد التي لا تبدو عليها آثار العمل الدؤوب في الحقل ..

ولم يكتف بهذا، بل أعد مكاناً جيداً وضع فيه الخمر ومستلزماته وهذه المرة علناً جهاراً نهاراً بلا تحفظ ..

انتظر الشيخ على الجبل لفترة، بعدها نزل إلى القرية ماراً بقرب بيت صالح فسمع ما سمع ورأى ما رأى ..

وقف الشيخ لبرهة ينظر لأهل قريته المساكين لقد استطاع الشيطان أن يوقعهم في شرِّ أعمالهم، وهاهو الشيطان يعبث بهم كما يحلو له كفريسة مستسلمة بعد أن أوقعهم في شباكه..

وردد الشيخ في نفسه المتألمة :

ـ ما الذي أستطيع أن أفعله لإنقاذ أهلي.. أهل قريتي.. إنهم في غيهم سادرون لا يقدرون هول الخطر الماحق الذي يحفهم وهم لا يشعرون . لقد أُسقط في يد الشيخ وأمامه ركام من المحاولات التي جربها وروحه المتألمة المتوجعة تناديه من ثنايا جسده :

ـ لا مكان لنا بعد هذه الساعة في هذه القرية..

ـ نعم لا مكان . . . ليس أمامي إلا الهجرة لقد فعلت كل شيء، كل ما بوسعي ماذا عساني أن أصنع لهم؟ ..

لقد جاء قرار الهجرة نتيجة للأوضاع التي ساءت في القرية، وهو أمر لاشك يبعث الألم في نفس الشيخ فليس من السهل على

الإنسان أن يقرر في لحظة زمن فراق كل ذكريات الماضي المفرح منها والمؤلم، مراتع الطفولة، شقاوات الصبا والفتوة و ذكريات العمر، كل العمر، هو يحدث نفسه عن الهجرة وهو لم يستوعب ذلك أصلاً، ولكنه بشر يفكر أحياناً خارج المنطق والمألوف، ليس لأن موضوع تركه القرية ليس منطقياً، ولكن أن يهاجر هو بنفسه شيء غير اعتيادي، فلقد نذر نفسه كشمعة تحترق لتضيء الدرب لأهل قريته فهل من المعقول أن يطفئ الشمعة بيده (فكان يردد: لن نخرج من القرية إلا شهداء إن شاء الله) ..

ماذا ينسى من القرية ؟ الناس الطيبين، حتى غير الطيبين منهم، ليس سهلاً على الإطلاق أن يترك الجبل الحنون ..

وأما مسجده الذي أفنى فيه زهرة شبابه فهذا لوحده قضية كبيرة، كل مكان فيه له فيه ذكرى وحادثة، هنا كان يصلي بالليل، وهنا كان يجلس مع مريديه، وهذه اللبنة أصلحها بيده وتلك الآية علقها بيده، وذلك العمود له معه قصة ..

ليس سهلاً أن يكون كل ما في القرية في ساعة هباء في صحراء أو حلماً في عالم الوهم، ..لم يستطع الشيخ من أن يمنع عينيه وهي تفيض بالدمع ، تلك القطرات الممتلئة أسًى ومرارة ولوعة وأمنيات، لو عاد أهل قريته أحباؤه إلى رشدهم حتى لا يقرر فراق مراتع صباه، نعم هو بحاجة إلى هجرة ولكن من نوع آخر..

وهو مستغرق في هذا صدح صوت حسن يؤذن لصلاة المغرب ..

عاد الشيخ للمسجد والوجوم بادٍ على وجهه وقرار أكيد على الفراق، صلى بالحضور القليل ، وأطرق رأسه مستغرقاً بذكر الله ..

كان حسن في تلك الأثناء مع بعض الشباب الملتزم في زاوية من زوايا المسجد ينظرون لشيخهم ولا يتجرؤون أن يقطعوا استغراقه، ولم يقطع استغراقه إلا صوت أذان العشاء ، صلى الشيخ بمن حضر وكانوا لا يتعدون أصابع اليد الواحدة، في ذات الوقت كانت أصوات البيانو تخترق كل ركن من أركان المسجد، وأوشكت أن تفسد عليهم صلاتهم ..

بعد الصلاة، ومرة أخرى يمم وجهه إلى بيت صالح يمني نفسه بأمل أخير ، ولكنه صعق عندما رأى إن شباب أهل قريته وعدداً لا يستهان به من شيوخهم قد احتشدوا جلوساً ووقوفاً حول محمد وهو يعزف لهم - حتى أنتم يا شيوخ ال......، قالها بينه وبين نفسه ولم يستطع أن يكملها، فهو لم يكن يوما طعاناً ولا لعاناً ولا فاحشاً ولا بذيئاً، بل كان مثالاً رائعاً في الأخلاق حتى مع أعدائه فضلاً عن أهله وأقربائه..

رفع رأسه إلى السماء قائلاً:

اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .. اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون..

*****

في الطريق إلى بيته، إذا بأصوات صراخ ودربكة عالية بين البيوت، ماذا يحصل؟

إن أحد شيوخ القرية قتل ابنته ..

ما إن سمع الشيخ يوسف بالخبر حتى هرول مسرعاً إلى البيت الذي فيه الحادثة فلما وصل وجد الأب قد تضرجت يداه بدم ابنته ..

صعق الشيخ فالذي حدث أمر لم يحدث مثله في القرية من قبل، وبادر بتوجيه سؤال عفوي إلى والد القتيلة والرجل أشبه بغائب عن الوعي:

ـ ما ذا فعلت يا رجل .. أمجنون أنت؟ ما تصنع؟

صرخ الرجل وهو في حالة يرثى لها:

ـ نعم قتلتها .. قتلتها .. غسلت عارها .. تخلصت من قذارة كادت تعلق بي وبأهلها إلى ما شاء الله ..

صعق الشيخ من هذا الجواب .. إذاً القضية أكبر مما تصور .. الزنا الطامة والكارثة الجديدة ..

ـ ولكن هل تأكدت من ذلك ..؟ من قال لك؟

ـ يا سيدي يا شيخنا، أأنتظر كل هذا؟

ـ نعم تأكدت .. تأكدت .. غسلت عار العائلة وكفى ..كفى .. كفى.

لا تلوموني.. أكنت تريد أن آخذ ضغثاً فأمسح به على ظهرها..

تألم الشيخ من كلام الرجل فهو يعلم أن ما قام به الرجل ليس الحكم الشرعي ولكنه أعذره لما يمر به من مصيبة..

سحب الشيخ أحد رجال القرية ليستفهم منه، فشرح الموضوع أن المقتولة بنت في مقتبل العمر، صغيرة، يبدو أن أحد شباب القرية قد كان يصاحبها خفية ويعدها بالزواج، وفي أحد اللقاءات كان مخموراً .. فحصل الذي حصل ..

ـ وبقية القصة عرفتها يا شيخ ..

إذاً .. هي الخمرة الملعونة .. أم الخبائث مرة أخرى .

تأمل الشيخ طويلاً وسأل نفسه مجموعة من الأسئلة، هل انتهى الأمر؟ هل انتهى واجبه؟ زنى وخمر وقتل ومعازف وابتعاد عن الله وعن طاعته، أهذه قرية تستحق البقاء فيها؟ هل سيفقد الأمل؟ ..

والأمل هذه كلمة بعثت في نفسه أسئلة أخرى، ما الذي يمنح الأم القوة والمصابرة وسهر الليالي الطويلة على تربية أبنائها؟ إنه الأمل بأنهم سيكبرون يوماً ..

ما الذي يدفع الفلاح إلى الكد والعرق والتعب وتحمل برد

الشتاء القارس وحرارة الصيف اللاهب لاستصلاح الأرض الجرز ثم زراعتها، والصبر على النبتة منذ أن تكون برعماً حتى تستوي ثم تزهر و تثمر ؟ أليس أمله في الحصاد، وما الذي يغري التاجر بالأسفار والمخاطر ومفارقة الأهل والديار ؟ إنه أمله في الربح، وما الذي يدفع الطالب إلى الجد والمثابرة والسهر والمذاكرة ؟ إنه أمله في النجاح، وما الذي يحفز الجندي إلى الاستبسال في القتال والصبر على قسوة الحرب وتحمُّل ظروف الحرب القاسية وجلادة العدو وقوته ؟إنه أمله في النصر، وما الذي يجعل المريض يتقبل الدواء المر ويتجرعه ؟ أليس أمله في العافية والشفاء، وما الذي يدعو المؤمن أن يخالف هواه ويطيع ربه ؟ إنه أمله في رضوان ربه وجنته.

فالأمل هو القوة الدافعة التي تشرح الصدر للعمل، وتجدد عوامل الكفاح والجد والمثابرة من أجل الواجب، وتبعث النشاط والتفاؤل و الجرأة في الروح والبدن، وتدفع الخامل إلى ترك الكسل وتحفزه إلى الجد والاندفاع من جديد وأن لا يبقى حيث هو، و تدفع المجدَّ المثابر إلى المداومة على جده وعمله، كما أنه يدفع من يفشل إلى معاودة المحاولة مرة وأخرى وأخرى إلى أن يتحقق النجاح، ويحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه ويصل مراتب النجاح الباهر. فحياة بلا أمل كسفينة تبحر بلا

مجذاف، إن الأمل هو أداة بناء المستقبل، وهو ضد اليأس والقنوط والقعود، إنه الفنار الذي يهتدي به الساعون إلى الحق ويوجهون به سفنهم إلى شاطئ الأمان دوماً، بينما اليأس معول الهدم الذي يحطم في الروح كل بارقة خير أو دعوة إلى عمل صالح ويجفف منابعه، ويُودع في الجسد دواعي الضعف ويقتل دواعي وبواعث القوة، وإن الأمل هو مصدر السعادة، وإن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب، والتشمير عن ساعد الجد، والقانط لا يسعى ولا يعمل ولا يقدم شيئاً لا لنفسه ولا لغيره وإنما يعيش على الأمنيات غير الواقعية، وإن الأمل يحتاج إلى عوامل تغذيه، وأول ما يغذيه وأهم ما يغذيه هو الإيمان، فهو الأساس الذي يبعث في النفس الأمل ..

نعم هذه حقيقة وواقع. إن الإيمان يبعث في النفس الأمل والانشراح، ويدفع عنها اليأس والأسى والقنوط، فالمؤمن الحق يرى أن الأمور كلها بيد الله تعالى فيحسن ظنه بربه ويرجو ما عنده من خير، وأمام عينيه سيرة طويلة لحياة الآلاف من الرجال القدوات من هذا القبيل .وكيف يمكن أن يتطرق اليأس إلى نفس المؤمن وفي كتاب الله الذي يؤمن به آية تقول: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

أم كيف يتمكن منه قنوط وهو يردد كلما قرأ القرآن قوله

تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

إن العبد حين يكون مؤمناً حقّاً ومتسلحاً بعقيدة سليمة وسالكاً درباً واضح المعالم فإنه لن ييأس مطلقاً، بل سيكون دائماً متفائلاً ومستبشراً وراضياً بما يصيبه

ومتطلعاً للأحسن في كل الأمور فهو في كل حال من الأحوال موعود بالخير فكيف ييأس ؟.

إنه ومن خلال ما يؤمن به يوقن ويتدبر أن الله عزَّ وجلَّ معه وهو ناصره وكافيه، وبناء على ذلك فهو إذا مرض رجا العافية والأجر وتكفير الذنوب،وإذا أصابه ضيق أو عسر أيقن أنها شدة عما قريب ستنجلي فلن يغلب عسر يسرين، أو هو امتحان رباني فيه الأجر والثواب إذا صبر عليه ..

إن المؤمن في كل أحواله صاحب أمل كبير في الله وفرجه ومعيته ونصره، والمؤمن لا يقف عند الأسباب الظاهرة للأمور فحسب، بل يتعداها إلى اليقين بأن لها خالقاً ومسبباً وهو الذي بيده أمر كل شيء وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ولن يعجزه عن ذلك شيء، فيمتلئ قلبه توكلاً ورجاءً وأملاً وتفاؤلاً، وهذا ما يفتقده غير المؤمنين ؛لذلك تراهم ينتحرون ويصابون بالعقد والأمراض النفسية الكثيرة،لهذا فإن التسلح بالأمل واجب شرعي قبل كل شيء وبه ينظر إلى الأشياء بطريقة جديدة وصحيحة.. والأمل لابد منه

لتحقيق الإنجازات في كل المجالات، فلولا الأمل ما شيدت الحضارات ولا تقدمت العلوم والاختراعات،ولا نهضت الأمم من كبوات تصيبها، ولا سرت دعوة إصلاح في المجتمعات، ولولا الأمل ما بنى بانٍ بنياناً ولا غرس غارس غرساً..

بعد كل هذا الذي دار في خلده، وجد صوتاً بداخله يقول له:

ـ عليك أن تحسن الظن بربك، متأملاً منه الخير والنصر والفرج، فإن ابتليت فاصبر واعلم أن العسر لو دخل جحراً لتبعه اليسر ولن .. لن يغلب عسر يُسرين، فكن صبوراً مقداماً واستعن بالله ولا تعجز، ووجد نفسه يردد قول الشاعر:

أعلل النفسَ بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

وعاد ليردد: لن نخرج من القرية إلا شهداء إن شاء الله ..

وهكذا كانت كلمة الأمل في خاطره مثل جرس دق في ثناياه وجعله يقرر البقاء لأن القرية هي الآن في أمسِّ الحاجة إليه ..

****

في مكان آخر كان حسن يمشي مع صديق له في أحد أزقة القرية مهمومين متعبين .. قال صديق حسن:

ـ لقد رأيت الشيخ (يوسف) قد تكدر كثيراً أكثر من ذي قبل بعد حادثة الزنا، برأيك يا حسن ما السبب.. ؟

تنهد حسن وزفر زفرةً خرجت من أعماقه وقال:

ـ أتعلم أن جريمة الزنا من أقذر الجرائم وأشنع الأفعال وهي من المهلكات، وقد أنكرها كل دين فضلاً عن الإسلام، وقد جاء في وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه وتابعيه أن (لاتزنوا)، بل وأنكرها العقلاء والحكماء، بل وحتى عامة الناس ممن يمتلكون أدنى قدر من الغيرة، كما أنكرها أصحاب المدنية الغربية جهراً، وإن قبلوها سراً، وذلك لما فيها من آثار سيئة على حقوق الأزواج واختلاط للأنساب وحل لروابط الأسرة وقتل لما في قلوب الآباء من عطف وحنان على الأبناء، وفي ذات الوقت قتل لبنوة مفقودة لأنها غير حقيقية، والزنا من أعظم المفاسد لأنه يترتب عليه فساد نظام العالم في حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات، وهو يوقع العداوة والبغضاء بين الناس، ويسبب حدوث الأمراض الخطيرة، ولهذا كانت جريمة الزنا في الإسلام تلي جريمة القتل في الكبر والشناعة، ولهذا لم ينه الله عنه فحسب، بل أمر بعدم الاقتراب منه، وأخبر أنه فاحشة وساء سبيلاً في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٣٢]، والنهي عن قربه أبلغ من النهي عن فعله، وما نهي الشارع عن الوسائل المفضية إليه . كالنظر المحرم والخلوة بالمرأة الأجنبية، واختلاط المرأة بالرجال، ولمس الرجل للمرأة الأجنبية، وتحريم

التبرج والسفور، وسفر المرأة بدون محرم، إلا من أجل الابتعاد عن الزنا وعدم الوقوع فيه . وإن المرأة إذا وقعت في الزنا أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤوسهم بين الناس، وأما زنى الرجل فإنه يؤدي إلى اختلاط الأنساب وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد . ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، فكم في الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم، ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس . ومن خاصيته أيضاً أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته كليّاً، ويجلب الهم والحزن والخوف ويباعد صاحبه من الله ويقربه من الشيطان، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدة الزنا . ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأصعبها (يعني أن الزاني يجب رجمه بالحجارة حتى يموت)، ولو بلغ الرجل أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت ...

وخص سبحانه حدَّ الزنا بثلاث خصائص من بين سائر الحدود، أحدهما: القتل فيه بأشنع القتلات، والثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحدِّ عليهم ...والثالث: أنه أمر سبحانه أن يقام حدُّ الزنا بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة حيث لا يراه أحد ... ولا يلام

الإسلام في التشديد والتغليظ على مرتكب الزنا أبداً إنما الملام الحقيقي من روَّج لهذا الأمر وهذه الإباحية وسماها فنون الإثارة والتذوق والمتعة. تصور أن تسمى الجريمة فنّاً وذوقاً رفيعاً، لقد دفعوا لهذه الجريمة الذكور والإناث دفعاً خبيثاً، كالاختلاط المطلق، والرقص المنفرد والمزدوج، والروايات التي تقرأ أو تمثل بما تحوي من تبذل وخلاعة ..

وأخيراً اللقاء الحيواني الذي لا غرض منه إلا قضاء الوطر، وإرواء الطباع المستثارة، ولم يبح الإسلام قتل النفس إلا في ثلاثة مواضع واحدة منها الزاني المتزوج، لقول النبي ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة**» رواه مسلم، وفي ذلك دليل على عظم هذه الجريمة و بشاعتها.. على أن الإسلام لم يقر الحدَّ جلداً كان أو قتلاً لنشر العفة في المجتمع فحسب، بل اعتمد على ترسيخ اليقين في القلوب كأساس، وبناء الضمائر التي تراقب الله خفية وعلناً، وتأبى معصيته ولو أتيحت لها الفرصة وتوفرت أدواتها.ثم أفلا يسأل الزناة أنفسهم: ماذا يبقى للإنسان من آدميته وكرامته وعقله إذا تركت هذه الفاحشة يغالي بها بعض الآدميين من غير استحياء ثم لا يضرب على أيديهم أحد. إن إنساناً توفرت له كل هذه الميسرات وتجرأ على الترتيب لهذه الفعلة

الشنيعة. ثم افتضح حاله بين الناس بحيث يراه هذا العدد في هذا الوضع المهين الشائن. إن إنساناً في مثل هذا الحال لهو إنسان مفسد ضالٌّ مضلٌّ وهو قد فتح باباً كان مغلقاً في القرية، ولو لم يتمَّ بتره أو تأديبه فإن هذا يشكل خطراً على المجتمع كله..

ـ نعم والله كل ما قلته صحيح .أتعلم يا حسن: أشعر أن شيئاً ما سيحصل في القرية .. شيئاً سيئاً بالطبع .. الأمور تتغير نحو الأسوء وأشعر بانقباض شديد في قلبي لم أشعر به من قبل .. أنا أشعر بشعور من أضناه المرض، و أشعر وكأن ناراً قد اضطرمت في القرية وستأكل الأخضر واليابس، أسأل الله أن يخرجنا وينجينا من هذه الفتنة السوداء المظلمة.. ثم تابعا سيرهما كلٌّ إلى بيته.

*****

عاد الشيخ يوسف إلى بيته وكانت زوجته الوفية المخلصة بانتظاره، تنتظر أخباره مع أهل القرية ..

ـ بشِّر يا أبا محمد؟ قالتها بلهفة ..

ـ خير إن شاء الله خير . . . ردَّ الشيخ بصوت متعب .. ما فعل الأولاد؟

ناموا جميعهم ...

-صلى الشيخ يوسف صلاة الوتر ثلاث ركعات ثم أوى إلى فراشه يهمهم بكلمات تسمعها زوجته:

(اللهم باسمك أضع جنبي، وباسمك أرفعه ، إن قبضت روحي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) ..لقد تعود أن يتلو هذا الذكر كل يوم فهو لا ينساه، تلا بعده آية الكرسي .. يحاول أن يستلب سِنةً من نوم ولكن هيهات فرأسه يكاد ينفجر من كثرة ما كان يدور فيه من أمور عصيبة، فهو يغلي كمرجل ولكن بلا أزيز يسمع .. وبينما هو كذلك عادت وراودته فكرة الهجرة وتذكر كيف هاجر النبي محمد ﷺ من مكة إلى المدينة وكيف وقف على مشارف مكة ليقول قولته المدوية، التي تدل على أن حب الأوطان من الإيمان (والله انك لأحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليّ ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك أبداً) فقال في نفسه :

ـ وهل أنا إلا جندي من جنود القائد محمد ﷺ لعمرو الله لقد أوذي في الله أيما إيذاء وعودي كل العداء بل وأُدمي في الله..

فهلا ذقت قليلاً مما ذاقه ؟ وعاد ليقول : (لن نخرج من القرية إلا شهداء) ..

نعم هو بحاجة إلى هجرة ولكن من نوع آخر، بحاجة إلى هجرة جديدة من دار الخمول والكسل والاتكال والأماني إلى دار الجد والعمل والتوكل على الله بعد الأخذ بالأسباب، بحاجة إلى هجرة واسعة من دار الملذات والشهوات وحبِّ الدنيا والمصالح

الدنيوية والاعتماد على الغير إلى دار العفة والطهارة والسعي في الدنيا لبناء الناس وتصحيح مسارهم الخاطئ، هجرة من دار الغش والكذب والنفاق إلى دار يجد فيها الأمانة. والصدق والمصارحة هناك أمر ما يحدث!! وهو غارق في تفكره بالهجرة ودروسها وأحداثها ونتائجها .. غلبه النوم ..

إنها صبيحة اليوم التالي والناس على غير عادتهم .

ولكن لا أحد يعرف ما الذي يحدث على وجه الدقة، إنها أصوات نحيب وبكاء وأنين، شيء من هذا القبيل .. ولكن لا يعرف المصدر .. اجتمع الناس في الطرقات ليميزوا هذه الأصوات ومصدرها ..

- ما هذه الأصوات ؟ سأل سائل !!

ـ لا لا لا .. هي ليست أصواتاً ..إنه صوت واحد ... صاح أحدهم ..

ـ إن أحداً يئن ويبكي !!!

ـ نعم نعم .. ولكن من يا ترى .. ؟

ـ لنبحث عنه .. أردف ثالث .

انتشر أهل القرية في طرقاتها وقرب عين الماء، وارتقى قسم منهم الجبل للبحث عن المجهول .. والغريب في الأمر أن كل فرد من القرية يشعر أن مصدر الصوت بقربه أو من المكان الذي يوجد

فيه، وبينما أهل القرية يبحثون..

إذا بشاب يصرخ بأعلى صوته:

ـ واغوثاه.. يا الله.. ما هذا؟!! تعالوا وانظروا!!!

التفت الناس إلى صاحب الصوت الذي كان عند عين الماء يومي إليهم بكلتي يديه أن تعالوا إلي ويصيح:

- هلموا. تعالوا.. أسرعوا...!!!

هرع الناس بسرعة فزعين تتملكهم اللهفة لمعرفة الأمر.. فلما اجتمعوا إليه أشار بيده إلى عين الماء.. فدهشوا بل صعقوا وهم ينظرون إلى عين الماء وقد غار ماؤها!!

ـ وا مصيبتاه... صرخ بعضهم..

وقفوا لفيفاً حول عين الماء تعلو وجوههم الدهشة التي عقدت ألسنتهم..

صرخ بهم أحد شيوخ القرية:

ـ ما الذي جرى؟ صوت أنين ونحيب لا ينقطع وعين الماء قد غارت أسرعوا وأحضروا الأواني واملؤوها من بقايا الماء الضحضاح المتجمع حول العين لتشربوا منه وإلا هلكتم...

هرع الناس وجاؤوا بالأواني والجرار وصاروا يتدافعون للحصول على الماء، الماء الذي كان يجري كالسيل في الماضي القريب، وقف الشيخ يوسف ينظر إليهم ويقول:

- (سبحان الله بالأمس كانوا يتدافعون عند بيانو محمد بن صالح .. وهاهم اليوم يتدافعون على الماء.).

مضى نصف النهار والنحيب يزداد ويستمر ولا ينقطع ..لقد أفسد عليهم معايشهم ومعاملاتهم وجلساتهم وهم، بين مذهول لا يدري ما يصنع ومتسائل عما يصنع .!!. أما الشيخ فقد بدا قلقاً ويقول في نفسه: إن هذه لطامَّة نازلة بنا ويردد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء: ١٦] ..

دخل المساء فأوى كل إلى فراشه لعله يحظى بنومة أو حتى بسنة من نوم، لكنهم لم يفلحوا، فهذا يضع وسادته فوق رأسه ضاغطاً بقوة على أذنيه، وآخر يعتصب على أذنيه وثالث يضع القطن فيهما.. وباتوا يدوكون ليلتهم كيف الخلاص ..؟ وهل من خلاص ؟

بزغت شمس اليوم التالي معلنة ميلاد نهار جديد والصوت يزداد وأهل القرية مشفقون مما هم فيه، فعين الماء جفت وصار ماؤها غوراً والزرع مصيره إلى الهلاك ثم يصبح هشيماً تذروه الرياح، وعلى هذا فقد فكر الكثير منهم بالرحيل إلى القرية المجاورة التي تبعد عن قريتهم مسيرة يوم وليلة للراكب ولا يمكن لأحد أن يقطع تلك المسافة بمفرده لكونها منطقة خطرة لما فيها من ذئاب مفترسة وحيوانات متوحشة.. هذا فضلاً عن أن الرحلة تحتاج إلى ما يكفي

من الزاد والماء. فكان لزاماً عليهم العدول عن هذه الفكرة ومواجهة المصير المجهول بالبقاء في القرية . عند ظهيرة هذا اليوم اجتمع الكثير من رجال القرية على غير موعد مسبق عند عين الماء وقد جفت يفكرون بالحلول فاقترح أحدهم يشرعوا بحفر بئر ماء لتوفير كمية من الماء، في أقل الأحوال فإنها تؤمن بقاءهم وعدم هلاكهم، فرأى الناس أنها فكرة صحيحة فأسرعوا وأحضروا المعاول وأدوات الحفر اللازمة، وشرع الشباب بالحفر وعملوا بقوة واندفاع إلى المساء يتناوبون في الحفر، وقبل أن يخيم الظلام بدت بوادر ماء، صرخ أحد الشباب الذي كان داخل الحفر وهو لايرى:

ـ ماء .. ماء .. أبشروا خرج الماء..

كانت صرخات الشاب هي الأمل ومن غير شعور صرخ كل من كان خارج البئر: ماء ماء، وتعالت الأصوات..

ـ ماء... ماء .. وركض البعض إلى القرية ليبشر الناس فهرع كل من كان في القرية إلى موضع الحفر وقد حملوا أوانيهم لجلب الماء، لم يبق أحد في البيوت .. الكل خرج بلا استثناء .. ولكنها فرحة لم تدم أن الماء الذي خرج لم يكن يصلح للشرب، الماء غير صالح وإضافة لذلك فيه مرارة لا تطاق..

خاب رجاء الناس وأحبطوا إحباطاً شديداً .. وجثا البعض على ركبتيه .. وانزوى الآخر يبكي بمرارة ...

أرخى الليل سدوله وهم حيارى لايدرون ما يفعلون، فمنذ يومين لم تذق عيونهم النوم ولم تعرف أجسادهم الراحة ...

ويبست حناجرهم من العطش . والشيء الوحيد الذي كان يلفت النظر في القرية هو استبدال أصوات البيانو التي لم تعد تسمع بأصوات النحيب والأنين . بعد انقضاء ثلثي تلك الليلة قام الشيخ يوسف من فراشه وتيمم بالتراب وصار يصلي، حتى إذا سجد قال :

ـ اللهم يا معلم إبراهيم علمني ... فإني جاهل وإنك أنت العليم الحكيم ..يا قيوم السماوات والأرض ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ...اللهم أرني في هذا الأنين والنحيب قولك الفصل، واستمر يصلي، فصلى ما شاء الله له أن يصلي وأنهى صلاته وقد أعياه التعب وأرهقت قدماه .. فافترش سجادته التي صلى عليها ثم نام.. رأى الشيخ (يوسف) فيما يرى النائم كأن الجبل الحنون قد جاءه والدموع تجري من عينيه كجري الأنهار فأيقظه وقال له : ـ يا شيخ أتسأل عن الذي ينتحب ويبكي ؟

ـ نعم ... نعم ... أجابه الشيخ بلهفة وبرغبة عارمة لمعرفة الجواب.

ـ حسن سأخبرك .. هذا أنا يا شيخ!

ـ أنت .... أنت .... كيف ؟

استفهم الشيخ متعجباً ... ثم استدرك :

ـ ولكنك جبل حجري صخورك صماء، فكيف يكون لك مشاعر وأحاسيس وعواطف...؟ وثم تبكي كيف تبكي؟ جبل يبكي؟ لم أسمع بهذا من قبل!!

ـ أأنت تقول هذا يا شيخ؟ غفر الله لك

بل لنا مشاعر يا شيخ غير مشاعركم أنتم بنو البشر، وهذه الصخور التي تدعي أنها صماء أتعرف أنها لم تنقطع عن التسبيح بحمد ربها ومنذ أن خلقها الله سبحانه . . .

سبحان الله .. ثم أردف الشيخ قائلاً :

ونحن بني البشر فضلنا الله سبحانه وتعالى على سائر خلقه ، بل وسخرهم لنا ، فأطاعوه صاغرين وتكبرنا، خلقنا من عدم وكبَّرنا من صغر ونعبد أهواءنا وملذاتنا ونعصيه، يرزقنا ونحمد غيره، ويلطف بنا ويكرمنا ونشكر غيره، إن قلوبنا قاسية، قاسية، قاسية ،أقسى من الحجر ، ثم إن الشيخ شعر أن الوقت سيدركه قبل أن يسأل الجبل الحنون عن سر بكائه ونحيبه فسأله :

ـ ولكن قل لي بالله عليك لم كل هذا النحيب والبكاء؟

فأجاب الجبل : تأثرت بكلامك آنفاً!!

ـ تأثرت بكلامي .. كيف ومتى؟ استفهم الشيخ (يوسف) متعجباً فهو لم يكلم الجبل من قبل هذا . . .

ـ أتذكر أيها الشيخ عندما جمعت الناس عند عين الماء وخطبت

فيهم وذكرتهم بقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].. هنا .. أجهش الجبل بالبكاء قائلا :

ـ يا سيدي .. أنا أخشى أن أكون أنا من الحجارة التي تسعر بها جهنم .. تعجب الشيخ من هذا الكلام وقال :

ـ صدق الله الكريم عندما قال :﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] . وقال : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢] .

ـ فما بال عين الماء وقد جفت ؟

ـ هي الأخرى خافت من سوء الخاتمة لهذه القرية فغارت في جوف الأرض ... استيقظ الشيخ من نومته مذهولاً ، أيصدق هذه الرؤيا أم يكذبها . . . يا لها من رؤيا ، لقد حيرته بحق ، فيها أمور واضحة ولا يمكن أن تكون أضغاث أحلام.. وبينما هو غارق في تفكيره إذا بصوت المؤذن لصلاة الفجر .. قام الشيخ من فراشه مغادراً بيته تلقاء المسجد فلم يجد إلا المؤذن وأحد تلامذته فصلى بهما ثم جلس حائراً ، أيحدث الناس بالرؤيا التي رآها أم ينتظر أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً وهو من كان يحدث الناس أن الرؤيا لا يستدل بها وإنما بالإمكان أن يستأنس بها ، وهو جالس في مسجده مع تلميذه حسن وقد ارتفع قرص الشمس قليلاً ،إذا بجلجلة

أصوات خارج المسجد ... خرجا مسرعين فوجدا شابين من شباب القرية قد تخاصما ثم تقاتلا قتالاً مرّاً حتى أدمى أحدهما الآخر من أجل شربة ماء، فتدخل حسن بسرعة وفض الاشتباك بين الشابين، ورأى الشيخ الناس يخرجون من بيوتهم كأنهم قد خرجوا من القبور وقد نفد ماؤهم وكأنهم سكارى وما هم بسكارى، فما بهم إلا العطش فعين الماء جفت على حين غفلة منهم ولم يستطيعوا أن يجمعوا إلا النزر القليل من الماء، هنا أيقن الشيخ أن الهلاك بأهل قريته لا بد نازل، فكانت الساعات تمر متثاقلة عليهم كأنها دهور، وهم عطاشى أعياهم التعب وأخذ منهم الجهد كل مأخذ، حائرون، يائسون خائفون، لا ينتظرون إلا حتفهم، وقد خرسوا فهم لا يعرفون بماذا يتكلمون أو ماذا يقولون!! وفي وقت عصر ذلك اليوم سمع صراخ وعويل في أحد بيوت القرية،خرج الناس سراعاً باتجاه الصوت فإذا بأحد الشيوخ قد مات عطشاً، بدأ أهل القرية ينظر بعضهم لبعض يتكلمون بلغه العيون ويتساءلون: ترى من سيكون الضحية القادمة؟ روح من سينتزعها ملك الموت بعد هنيهة؟ فخرج رجل مسن يصرخ:

ـ يا الله أريد ماء .. نحن عطشى أننا نهلك هل من حلٍّ، هل من مجيب ..؟ وفي تلك الأثناء والناس مجتمعون صامتون مذهولون وأنظارهم صوب الرجل الذي يصرخ، دخل القرية رجل ومعه

ثلاثة بغال وكلبان أبيضان كبيران اتخذهما للحراسة، يحمل معه متاعه وهو يسلك طريقه للقرية المجاورة أوقفوه وأخبروه بالأمر وطلبوا منه المساعدة إلا أن عددهم كبير ومتاعه قليل فقال لهم: إن معي بغلين إضافيين ومتاعاً وماءً يكفي لاثنين معي فأرى أن أحمل معي اثنين منكم .. فرح أهل القرية وكلهم يمني نفسه أن يكون أول ناج فتعالت صيحاتهم وتخاصموا فقال لهم الرجل: أرى أن تقترعوا، فقالوا نعم الرأي ما قال الرجل، فقاموا وكتبوا كل اسمين في ورقه وطلب كل واحد منهم وهم يتدافعون أن يقوم هو بالسحب لعل الورقة التي يسحبها فيها اسمه، بهذا التفكير الساذج كان بعض أهل القرية يحاولون النجاة من المحنة كأن ليس فيهم رجل رشيد فقد صار عقلاءهم يتصرفون كصبية، ولكن الرجل اقترح أن يقوم هو بنفسه بالسحب فوافقوا جميعاً..

وكان الشيخ (يوسف) يقف بعيداً عن الحشد يربأ بنفسه عن القضية لأن قضيته الرئيسية ليست هذه..

همس أحد الشيوخ الحضور بأذن رفيقه الذي بجنبه..

- ترى من سيكون الناجي ؟

نظر الآخر إلى الجمع ودار بصره على الجمع مرة ومرتين فوكز صاحبه بيده وكزة خفيفة ليثير انتباهه وأشار بوجهه إلى الشيخ يوسف .. وقال

ـ أقسم لو أن الأمر بيدي لن أعطي فرصة لغير هذا الرجل..

ـ من تقصد ؟

ـ وهل هناك غيره .. الرجل الوحيد الذي ينبغي أن يبقى هو الشيخ يوسف

ـ أوافقك الرأي .. هو الوحيد الذي يستحق..

وأجروا عمليه الاقتراع فخرجت ورقة الشيخ يوسف وزوجته ..

وهكذا فاز في القرعة من كان له حق الحياة حقيقة وعدلاً ، فاز بفرصة الحياة صاحب القضية ومن أعدَّ مشروعاً لقضيته، ومن صارع المنكرات لتعلو الفضائلُ .. إن الإنسان الذي لا يحارب الفساد إنسان ميت .. فاز من جاهد لتعلو الأخلاق وتذلَّ الرذيلة، وعانى من أجل إنقاذ الآخرين وهم يهلكون أنفسهم، فاز من كان يرى أن الحياة حلوة خضرة لكنها تافهة زائلة، وخسر من سلك درب الشيطان وابتعد عن الإيمان وأحب حياة الأحزان، فاز من كان إيجابياً في كل تصرفاته ليقدم شيئاً لمن معه ولم ينظر لنفسه فقط، إن القرعة تعطي للآخرين درساً جديداً، إنها تقول: مستحق الحياة هو الذي يعيش ويعرف وجهة الهدف الذي يقصده ..جاعلاً كل الرياح له مسخرة ومواتية، إنه الإنسان الذي يفهم دوره في الحياة .. فيمشي بدربه بخطوات ثابتة قوية مشية الواثق

المطمئن وبنفس أبية لا تعرف الكلل، وقد يتعثر ولكنه لا ييأس إنه ينهض بعد وقوع وتنهض معه كل العزائم، فهو يستفيد من كل خطوة يخطوها ..حتى تصبح عثراته دليلاً يهتدي به، وهفواته دروساً يتعظ منها ..وصحواته نوراً وثباتاً، إنها تقول إن من يكون منهجه اللهو واللعب لا يستحق البقاء وإن من لا يأمر بالأخلاق والفضيلة ويدعو لها هو الآخر لا يستحق الحياة... ولكنها عقيدة ومسيرة، ورسالة وقضية، لا بد للشيخ أن يؤديها فهو يشعر أنه لم يؤد ما عليه بعد ، فيقف مرة أخرى موقف الرجل الرشيد ليسفَّ الملَّ في عيون أهل قريته مرة أخرى، ليس بأسلوب المن و الوقاحة والتصريح ولكن بأسلوب السماحة والتلميح قائلاً:

ـ أما أنا وزوجتي فقد عشنا سنين طويلة والحمد لله ورأينا في حياتنا حلوها ومرها، ونحن والله لا ننتظر أن ننجو ويهلك الناس ولهذا فإني أقترح أن تعيدوا الاقتراع ..

عاد الناس إلى ضوضائهم وتدافعهم وتكرر المشهد نفسه وأجريت عملية الاقتراع مرة أخرى .. ومرة أخرى تخرج ورقة الشيخ يوسف وزوجته .. فقال الشيخ:

ـ وأنا ما زلت أريد البقاء بينكم يا أهلي وصحبي وأحبتي، إن عشتم فأنا معكم، وإن متم بآجالكم فأنا معكم، ولذلك فأنا أتبرع بحقي للركوب مع الرجل لتلميذي حسن وزوجته فهو شاب في

مقتبل عمره وإني لأرجو له مستقبلاً باهراً في كتاب الله وأحكامه وتلاوته وتفسيره، فهو متمكن منه بفضل الله إضافه إلى صنعته التي أجادها وهي النجارة .. قال ذلك الشيخ وهو ينظر إلى زوجته ويكلمها بعينيه ليسمع قرارها أما زوجته الصالحة - زوجه الشيخ يوسف - فلم تُرَ إلا مبتسمة راضية وأومأت برأسها إليه إشارة إلى رضوانها بالقرار الذي اتخذه زوجها، وهذا حال الزوجة الصالحة الوفية وهي تتذكر أول أيام اجتماعهما يوم عرسهما يوم قالت له ووعدته أنها لن تذوق غمضاً حتى يكون راضياً... بعد هذا الموقف العظيم وقف أهل القرية نادمين مطأطئي رؤوسهم لا يستطيعون النظر في وجه شيخهم وسيدهم حياء منه، فقد ضرب لهم أروع مثل في التضحية، والإيثار، وحب الغير، ونكران الذات، وأروع مثل في كونه أهلاً لقياده القرية ديناً ودنيا، فهو كقائد لهم لم يهرب بعيداً ويتركهم يذوقون آهات وويلات المصير المحتوم .. بل ألقى بنفسه في لجاج المحنة ..

وأما الشاب حسن فقال:

ـ لا يا شيخي والله ما هكذا علمتنا . و والله إني لأتمنى لك كل الخير ففضلك سابق على أهل القرية ووقفاتك مشهودة، وإني لن أكون بمنزله ارتضاها لك الله في النجاة... إلا أن الشيخ يوسف أمره فهو شيخه، فما كان من الشاب حسن إلا السمع والطاعة

فركب هو وزوجته ورحلا..

بعد غروب شمس ذلك النهار تعالت صيحات في القرية من هنا وهناك معلنة موت الواحد تلو الآخر من أهل القرية ظمأ..

الشيخ يوسف كان لسانه رطباً بذكر الله يتقوى على العطش بالتسبيح وهو راضٍ بقضاء الله وقدره وذلك كان يهون عليه الإحساس بالعطش على الرغم من نفاد آخر قطرة ماء في بيته عندما أخذ رشفة من الكوز بعد أن شربت منه زوجته..

أوى الشيخ إلى فراشه مستسلماً لرب العالمين، تالياً أذكار النوم كعادته، موقنا بأن الله يدبر الأمر وهو يردد قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩].. ثم أخلد إلى النوم...

قبل بزوغ شمس اليوم التالي وعند وقت صلاة الفجر قام الشيخ مسرعاً إلى صلاة الفجر كأنه نشط من عقال فرحاً،مبتهجاً، وأيقظ زوجته التي استيقظت متثاقلة من العطش، فصلى بها ركعتي الفجر وتجوز بهما، ثم أخبرها انه رأى في منامه رؤيا خير وقصها عليها قائلاً:

ـ لقد جاءني وأنا نائم رجل حسن الهيئة، أبيض الوجه، كأن وجهه القمر، ذو لحيه سوداء طويلة، يلبس البياض، معتمراً بعمامة خضراء وقال وهو يحدثني بصوت كأنه تغريد البلابل:

ـ يا يوسف إن أهل قريتك كفروا بنعم الله عليهم، وجحدوا بها، وما رعوها حق رعايتها، وظلموا أنفسهم كثيراً بركونهم إلى ملذات الدنيا الزائلة .. ألا إن الله ابتلاهم وهو ناظر ما يفعلون!! فإن اجتمعوا على صعيد واحد وتابوا إلى الله توبة نصوحاً لا ريب فيها خالصة لوجهه فسيقبل توبتهم ويتوب عليهم ويرفع عنهم البلاء الذي ابتلاهم به وإن لم يفعلوا زيد لهم في العذاب حتى يهلكوا عن بكرة أبيهم، أما الجبل ذلك العبد المؤمن الأواب فأبلغه أن الله حاشاه أن يعذب بالنار مؤمناً بجرم فاسق، فهو القائل سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، أما أنت يا يوسف فاعلم: إن الله ليباهي بك ملائكته ويذكرك فيمن عنده وخذ هذه تقويك..

فناولني قدحاً فيه شراب أبيض من الثلج، وأحلى من العسل، ليس بالبارد الزمهرير ولا بالحارّ بين ذلك وسطاً فشربت منه حتى ارتويت.. فلما رفعت رأسي لم أجده وندمت أني لم أسأله عن شخصيته!! وإنها والله لرؤيا خير إن شاء الله ... خرج الشيخ يوسف مسرعاً نحو الجبل الحنون والجبل لا يزال يئن أنين الكلمى ويبكي بكاء الثكلى فوقف أمامه صارخا بأعلى صوته: ـ أيها الجبل، أيها الجبل، كفاك نحيباً وبكاء فإن الله سيجيرك من النار التي كنت تخشى أن يقذفك فيها إن شاء الله ...

ولكن الشيخ فوجئ بارتفاع النحيب والبكاء فتعجب لأمرين

أولهما أن الجبل قد سمع ما قاله بالفعل، وثانيهما أنه لم يصدق ما قاله الشيخ، والدليل على ذلك ارتفاع صوت بكاء الجبل، فعاود الشيخ الكرة وصرخ بصوته الجهوري:

ــ أيها الجبل، إن الله قد أجارك من النار فالطف بنفسك والطف بالناس من حولك، ولكن الجبل ازداد بكاء وأنيناً ولم يأبه بكلام الشيخ، فهم الشيخ بفطنته أن الجبل يريد دليلاً على كلام الشيخ فقال له:

ـ أيها الجبل الحنون أقسم لك بالله الذي لا إله إلا هو أن رجلاً أبيض الوجه كأن وجهه القمر جاءني في منامي وأبلغني أن أطمئنك وقص عليه ما كان من الرؤيا، هنا خفت البكاء وصار يخفت ويخفت ولم تمض هنيهات حتى انقطع النحيب تماماً، ابتسم الشيخ قائلاً الحمد لله هذا فأل حسن، غادر الشيخ المكان مسرعاً متوجهاً صوب القرية ودار بين بيوتها بيتاً بيتاً يخبرهم برؤيته..

خرج الناس على إثر ذلك يخطون خطًى في الأرض وكأن سلاسلَ ربطت بأقدامهم، خرجوا من شدة ماعانوا وهم يمنون النفس بذلك الأمل الذي لاح بريقه أمام أعينهم، خرجوا صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء، ولم يتخلف منهم إلا من كان على وشك الهلاك من العطش أو حبسه العذر، وما إن وصلوا إلى مكان مرتفع على الجبل اجتمعوا، يكاد العطش يهلكهم ثم أمرهم الشيخ أن يولوا

وجوههم شطر المسجد الحرام. قلوبهم وجلة لا يعلمون ما سيصنع بهم،ووقف الشيخ يوسف إماماً لهم قائلاً: إني داع فاستمعوا لي واعقلوا كلامي وتدبروه، فإذا تمكن من قلوبكم قولوا آمين، ثم رفع الشيخ كلتا يديه صوب السماء وشرع بالدعاء:

ـ اللهم .. يا الله .. يا من لا إله إلا أنت ... الملك القدوس الحي القيوم لك الحمد في الأولى والآخرة ولك الملك بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، اللهم صلِّ على نبيك ومصطفاك محمد وآله وصحبه ..

ـ اللهم هؤلاء عبادك، أبناء عبادك، أبناء إمائك أهل قرية الجبل خرجوا عن بكرة أبيهم، وقفوا على بابك، تائبين نادمين على ما فعلوا طالبين منك الرضا والعفو والغفران، فتقبل منهم توبتهم،واغسل حوبتهم، صدحت حناجر أهل القرية بصوت واحد ... آمين ..

ولقد تفجرت تلك العيون الخاشعة النادمة وذرفت دموعاً غزيرة بألم وحسرة كبيرين كأنها صخور انبجست منها عيون الماء، بكى أهل القرية المذنبون حتى ابتل الثرى الذي يقفون عليه، وكيف لا يبكون وألم الخطيئة يكاد يطحن أكبادهم ويحرق أرواحهم، ثم أردف الشيخ خاشعاً باكياً هو أيضا، متذللاً إلى الله تعالى منكسراً بين يدي ربه قائلاً:

ــ اللهم إليك نشكو ضعف قوتنا، وانهيار عزيمتنا، و

استمكان الشيطان منا، فهب لنا من لدنك قوة نطرد بها كيد الشيطان عنا، صاح الناس والندم يكاد يأكل قلوبهم ... آمين .. أردف الشيخ داعياً:

ـ اللهم إننا نعترف لك بذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وسوء عبادتنا وركوننا إلى اللذين ظلموا، وقد ظلمنا أنفسنا باتباع شهواتنا فاغفر لنا ذلك إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم إنا نبرأ من كل قول وعمل قلناه أو فعلناه لايرضيك، تبرأنا من الظلم وأهله والفساد وأهله واللهو وأهله وعدنا إليك يا ربنا... بكى الناس بكاء مرّاً تقطعت منه أكبادهم ألماً وتحرقاً وحسرة نادمين على ما فعلوا فصاحوا جميعاً .. آمين ...

ـ اللهم إنا نعاهدك الساعة أننا لن نعود إلى الذي كنا نخوض فيه أبداً ونعاهدك أننا لن نعصيك ما استطعنا، صاح الناس ... آمين ..وهم متذللون لله منكسرون بين يديه متوسلون له وقد جفت مآقيهم فلم يجدوا دمعاً ليبكوا ولا يسمعون إلا وهم يجأرون ... آمين .. آمين ... آمين...

ـ اللهم إننا نسألك باسمائك الحسنى وبكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك إلا أن تتقبل توبتنا وترحمنا وتتجاوز عن إساءتنا .. قالوا:

ـ آمين .. آمين ....آمين ..

ـ اللهم عافنا واعفُ عنا، كن لنا ولا تكن علينا، وإلى أنفسنا طرفة عين لاتكلنا، يا ودود ... يا ودود .. يا ذا العرش المجيد .. يا فعالاً لما تريد يا من تجير ولا تجار يا مغيث أغثنا، يا مغيث أغثنا، يا مغيث أغثنا.....

ـ اللهم أرنا في قبول توبتنا آية تكن عبرة لأولنا وآخرنا .. ما إن صاح الناس آمين، حتى نزل الماء من السماء غيثاً غياثاً بلَّ الثرى وأهلَ القرية فتعانقوا وكأنهم في حلم، وهم يتباكون فخرُّوا لله سجَّداً من غير تخطيط مسبق، هكذا سجدة فطرية، واختلطت دموعهم بماء المطر وهم غير مصدقي ما حدث .. ثم بعد ذلك انتبهوا إلى أن عين الماء قد عاودت جريانها في تلك الساعة مثلما عاد خرير الماء يطرب الأسماع ..

التفت الشيخ يوسف، فإذا بمحمد بن صالح قد اعتزل الناس ينظر لما يجري فطلبه الشيخ فجاء إليه والناس تستمع ..

ـ يا محمد ألا تكفيك هذه من آية ..

ـ بلى..

ـ إذاً عليك أن تقلع عما كنت تفعله وتتخلص من كل شيء يغضب الله سبحانه وتعالى ..

ـ يؤسفني أن أبلغك أنني لن أفعل، قال ذلك وهو يلوي رقبته

ويحرك جسده ليستعد للمزيد من الجدل والمراء الذي لا طائل منه ..

تحرك الرجال التائبون، كأنهم الذئاب للأخذ بتلابيب محمد بن صالح وضربه، فقد كادوا أن يهلكوا وتهلك القرية برمتها من جراء أفعاله، والأمر بالنسبة إليه كأن شيئاً لم يكن، إلا أن الشيخ منعهم من ذلك وقال له:

ـ يا محمد لقد كنا على شفا جرف هارٍ كاد أن ينهار بنا في جهنم فمنَّ الله علينا فأنجانا وتقبل توبتنا فإن عدنا فإنا ظالمون. إن إصرارك على بقائك بأفعالك بيننا إصرار على الذنب وهذا لا يرضينا والله، فلذلك عليك إذاً أن ترحل عنا

ـ نعم، نعم سأرحل .. قالها بلسان المتكبر ...

وهكذا حزم محمد بن صالح أمتعته أمام أعين أهل القرية الذين رأفوا لحاله، فوضع البيانو وبعض الأشياء على ظهر حمار،وبين طيات قلبه هزيمته وخيبته التي جاء بها من بلاد الغرب .. هنا تحركت عاطفة الأب الحنون على ولده فهرول باتجاهه وهو يكلمه:

ـ يا ولدي دع عنك ما تصنع وابق معي .. ابق معي ومع أمك لقد عشنا هذه السنين الطويلة على أمل لقياك .. على أمل أن نتجمع مرة أخرى لقد كان يوم عودتك إلينا من أسعد الأيام، أنت تعلم أننا لم نذق طعم الراحة إلا يوم أصبحت بيننا، فلا تخذلنا وتقتل الأمل في نفوسنا، تخلص من تلك الآلة اللعينة .. ستموت أمك

بعدك، بل سنموت كلانا.. كان محمد بن صالح على الحمار يكَزُه ليهرول، والأب تحته يهرول ويكلمه، والموقف أثر في كثير من الحضور أما محمد فلم تتحرك عنده أدنى عاطفة، فتحرك أحد الشيوخ ليسحب أبا محمد رأفة بحاله لأن الكلام معه بلا معنى وبقي أبو محمد يتكلم مع الحاضرين ..

ـ بربكم أيعقل هذا؟ أتصدقون ما يجري؟ أيبيع المرء أهله وتاريخه بآلة سخيفة لا معنى لها .. ماذا جرى لولدي؟ كلموني .. أجيبوني جزاكم الله خيراً؟

وبطبيعة الحال لم يجد الإجابة لأنه لا أحد يملك الإجابة .. بالفعل هي استفهامات عن شيء يدعو للعجب، انزوى محمد بن صالح جانباً ينظر

إلى الجمع قبل رحيله، أما أهل القرية فوقفوا لفيفاً حول الشيخ المبارك يوسف، الذي قام فيهم خطيباً حامداً لهم الله على سلامتهم من الهلاك ومحذراً من الخوض مرة أخرى في المعاصي .. فقام رجل منهم وقال: ـ يا شيخ والله لقد ظننا بك السوء فتجاوزت عنا . . .

عصيناك عندما أمرتنا بالامتناع عن المعاصي فصبرت علينا .. ولم يثنك ذلك من الاستمرار في العمل والجد لإنقاذنا، فجزيت عنا خير الجزاء، وإنا نشكر الله الذي نجانا، ثم نشكرك لأنك كنت السبب في نجاتنا، ثم اقترب شيخٌ آخر من الشيخ يوسف

وسأله ...

ـ يا شيخ لقد أثار دعاؤك عندي تساؤلاً!!

فلقد رأيت أن كلمات الدعاء لم تخرج من فيك جزافاً بل كان فيها مغزًى كبيرٌ .... أليس كذلك ؟

انسابت ابتسامة جميلة من ثغر الشيخ يوسف كما تنساب القطرة من فم السقاء فقد علم أن السائل قد تدبر الأمر وهو مراده فقال :

ـ الدعاء أخي الكريم هو إظهار الافتقار لله تعالى، والتبرؤ من الحَوْل والقوة، واستشعار الذلة البشرية، كما أن فيه معنى الثناء على الله، واعتراف العبد بجود وكرم مولاه. وله آدابه وطريقته واعلم أنه ليس شيء أكرم على الله من الدعاء، والمؤمن موعود من الله تعالى بالإجابة إن هو دعا مولاه ، والرجل لا يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته، أو يدخر له من الخير مثلها يجزيه بها يوم القيامة، أو يصرف عنه من الشر مثلها، ومن ألهمه الله الدعاء استجاب له، فعلى المرء أن لا يحمل همَّ الاستجابة بل يحمل همَّ الدعاء، وأن يجتهد في الإتيان بالأدعية الواردة في الكتاب والسنة ؛ فإنها لم تترك شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا وأتت به، وألا ييأس إن تأخرت الإجابة، فإن هذا من العجلة التي نهى عنها

الله سبحانه وتعالى.و لقد ابتدأت دعائي بالثناء الجميل الحسن على الله تبارك وتعالى، فذكرت أسماءه الحسنى وصفاته العليا ثم صليت على نبيه ومصطفاه محمد وتلك هي سنة نبينا محمد ﷺ في الدعاء ثم دعوت الله بمسألتنا التي اجتمعنا من أجلها وأعلنت توبتنا لله بشروطها الجامعة ..

ـ وهل لها شروط يا شيخ ؟

ـ بالتأكيد... إن للتوبة شروطاً لابد أن تتحقق فإن لم يتحقق منها ولو شرطٌ واحد لا يعتبر العبد تائباً من ذنبه توبة كاملة ..

ـ وما هذه الشروط يا شيخنا ؟

أجابه الشيخ :

أولها ـ أن ينوي العبد بنية صادقة التوبة وهذه النية محلها القلب..

ثانيها ـ أن يقر ويعترف العبد بالذنب الذي ارتكبه وأنه خالف الله تعالى وعصاه .

وثالثها ـ أن يقلع عن الذنب من ساعة التوبة ..

ورابعها ـ أن يعزم صادقاً أن لا يعود إلى ذلك الفعل أبداً متوكلاً على الله. وخامسها ـ أن يندم على ذلك الفعل ويتأسف ويتمنى لو لم يفعل تلك الفعلة..

وسادسها ـ إذا كان الفعل هو اغتصابَ حق الآخرين فعلى

التائب إعادة الحقوق لأهلها فإن كان ذلك غير ممكن لسبب من الأسباب فعليه الطلب منهم أن يصفحوا عنه ..

ـ ما أحسن هذا ... قالها الشيخ السائل وعلامات الارتياح بادية على صفحات وجهه .

أراد الشيخ يوسف أن يزيد من همة الشيخ السائل ويبعث في نفسه مزيداً من الأمل ويكمل له فرحته فقال له :

ـ وفوق ذلك كله فإن من تاب توبة نصوحاً فإن الله يبدل كل سيئاته التي عملها قبل توبته حسنات ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] ..

تعجب السائل من ذلك وقال :

ـ يا لرحمة ربنا .. يبدل كل السيئات حسنات ..

يا لهذا الكرم وهذا الجود المنقطع النظير ..

وجد الشيخ يوسف أن الرجل بحاجة إلى المزيد فقال له :

ـ دعني أحدثك بقصة رواها النبي محمد ﷺ عن رجل من الأمم السالفة ، هذا الرجل قتل الكثير الكثير من الأنفس بغير حق وارتكب الكثير من المعاصي وأراد أن يتوب ، فجاء إلى رجل صالح في قريته وسأله : هل من توبة ؟ فأجابه الرجل الصالح بأنه ما من ذنب ليس له توبة فباب التوبة مفتوح ما لم يغرغر الإنسان ،

ونصحه أن يذهب إلى قرية أخرى ويبدأ توبته هناك، وكان التائب صادقاً عازماً على التوبة فحمل متاعه وسافر إلى قرية جديدة ليبدأ حياة صحيحة جديدة، وفي الطريق بين القريتين وافته المنية فمات .. فاختلفت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، في كونه مات تائباً أم لا!! لأنه لم يصل إلى القرية الأخرى بعد، فعادت الملائكة إلى الله سبحانه وتعالى، فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يقيسوا المسافة بين القريتين فإلى أيهما كان أقرب تحسب له .. وفي نفس الوقت أمر الله سبحانه وتعالى المسافة بين الرجل وبين مكان التوبة أن تطوى وتقصر فجاءت الملائكة فوجدت المسافة بينه وبين القرية التي نوى أن يتوب فيها أقرب فغفر له ..

وبعض الناس يرى في التوبة جهاداً مضنياً، وقيوداً صعبة، يكبل بها، لكن التوبة ببساطة هي الحياة مع الله، في حب وطاعة وصدق، ومراجعة دورية ومستمرة لكل الأفعال، وقد خلق الله الإنسان وميزه عن باقي الكائنات بالعقل. فبه يثاب وبه يعاقب. ويحتاج الإنسان إلى جانب عقله أسساً تدعم مسيرته في الحياة. وهذه الأسس تتجسد في الأخلاق الفاضلة التي هي خير دعامة في حياة الإنسان، بينما الأخلاق الرذيلة هي معول الخراب والهدم، ومن هذه الأسس التوبة المتجددة، والحياة مع التوبة لها طعم جديد دائماً، فالتوبة هي لحظة تجلت فيها رحمة الله وعظيم فضله

للعبد الفقير . أرأيت كم مات من أقربائنا وأهلنا وأصدقائنا، وعلينا أن نسأل أنفسنا هل مات من مات يوم مات سعيداً؟ راضياً، قانعاً؟؟؟ ها هو يموت رغم كل أمواله أو فقره بكل قوته أو ضعفه، بكل شرفه أو قلة قدره، الكل يموتون بنفس الطريقة التي مات سائر أقاربائنا ومعارفنا، فماذا صنعوا وماذا أخذوا من هذه الدنيا مع اختلافهم؟ وأسئلة كثيرة وكثيرة ..فالمطلوب أن نعود إلى الله بقلب خاشع ونحقق توبة قبل الممات وندعو الله ليلاً ونهاراً بقلب منكسر وبطرف دامع، وهو سيتولانا بعفو واسع ويبدل كل السيئات حسنات أجرها لا ينفد، كل هذا العفو للعبد المنيب سببه التوبة لله الكريم وسيسبغ نعمته على التائب فتكون بلا حدود كما أنها بلا ثمن، فأمام هذه العروض ليس للعاقل إلا التوبة، وإن الله يفرح بتوبة عبده كل الفرح، وسأروي لك قصة صغيرة رواها أحد العارفين بالله أنه رأى في بعض السكك باباً قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي ، وأمه خلفه تطرده حتى خرج ، فأغلقت الباب خلفه ودخلت فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف متفكراً ، فلم يجد له مأوًى غير البيت الذي أخرج منه ، ولا من يؤويه غير والدته ، فرجع مكسور القلب حزيناً . فوجد الباب مغلقاً فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام ، وخرجت أمه ، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه ، وراحت

تقبله وتبكي وتقول: يا ولدي ، أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم اقل لك لا تخالفني ، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما فطرت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت . وإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، لذلك حين يقع الإنسان في المعصية فعليه أن يبادر بالتوبة ويسارع إليها ويستعجل الوقوف على باب الله وهو الكريم ، وإن التسويف والتأجيل من عمل الشيطان وهوى النفس، فالأعمار بيد الله عزَّ وجلَّ ، وما يدري الإنسان لو دعي للرحيل وودع الدنيا وقدم على مولاه مذنباً عاصياً ،ثم إن التسويف والتأجيل قد يكون مدعاة لاستمراء الذنب واستساغته والرضا بالمعصية، لذلك علينا المبادرة بالتوبة والطلب من الله أن يقيل عثراتنا ويرحمنا ويصفح عنا فما لجميل الصفح غيره. وتعجيل التوبة فوز برضا ربك، وليكن قدوتَك في ذلك أبوك آدم عليه السلام، فهو ما إن أحس بالمعصية حتى بدأ في مراحل الإقلاع عنها، فلقد كان آدم عليه السلام في جنات ربه لا يجوع فيها ولا يعرى، فوسوس لهما الشيطان، فدلاهما بغرور وأقسم له ولزوجته أنه لهما من الناصحين، فلما أكلا من الشجرة التي نهاهما عنها الله سبحانه وتعالى عنها بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، كلما أرادا أن يستترا بورق الجنة تساقط عنهما، فلما علم

آدم أنه قد عصى ربه ندم على ما فعل وتاب، ثم قال هو وأمنا حواء ما جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]..واعلم أن الله لا يقبل من التوبة إلا النصوح الخالصة المخلصة من كل شائبة، وأنه لايأس مع التوبة فالذي يقنط الناس من رحمة الله جاهل بحقيقة التوبة وحب الله لعباده، إن الله يفرح بتوبة التائبين، ويحبُّ عودة العصاة الآثمين، وقد جاء في الخبر: (إني لأجدني أستحي من عبدي يرفع إليّ يديه يقول يا رب يا رب فأردهما) فتقول الملائكة: ((إلهنا إنه ليس أهلاً لتغفر له فأقول: ولكني أهل التقوى وأهل المغفرة أشهدكم أني قد غفرت لعبدي))[1] .

ـ ما أجمل هذا وما أروعه وما أعظمه ..

أردف الشيخ السائل عندي سؤال أخير يا شيخ ولو أني قد أثقلت عليك .

ـ أبداً ..أبداً، سل ما بدا لك ولكني إن جهلت الإجابة سأقول لك لا أدري .. تعجب الشيخ السائل وقال:

ـ وهل يمكن للشيخ العالم أو الفقيه أن يجهل بعض أمور دينه ؟

ابتسم الشيخ يوسف وقال:

---

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣٤٠/٨) وقال: أخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" عن الحسن.

ـ بالتأكيد، فلا يمكن لإنسان على وجه الأرض أن يحيط بكل العلم لأن ذلك من خصوصيات الله سبحانه وتعالى .. وأزيدك إن الإجابة بلا أدري لدليل على العلم، وكما قال أحد علمائنا: (من قال لا أدري فقد أفتى) والآن سل ..

ـ يا شيخ، بعد الذي حصل لنا فإني أريد أن أعرف، هل الله يعاقب كل قرية تعصيه؟ وهل ينطبق ذلك على الأشخاص؟

ـ اسمع أخي العزيز: اعلم أن الله تبارك وتعالى لما خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض إنما خلقه لهدف سام ذلك هو تحقيق معنى العبودية لله والكفر بما يعبد من دونه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقد يفهم البعض هذه الآية فهماً خاطئاً،وهو أن يقضي الإنسان عمره كله في الصلاة والصيام والقيام وذكر الله وطلب العلم الشرعي فحسب، ويفسر العبادة بهذا التفسير، وذلك حقيقته جهل في دين الله سبحانه وتعالى، والدليل على صحة كلامي أن ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ عزم أحدهم أن يصوم ولا يفطر وعزم الآخر أنه يقوم الليل ولا ينام أما الثالث فقد عزم ألا يتزوج النساء، فقال رسول الله فيهم: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1].

---

(١) البخاري (١٩٤٩/٥)، ومسلم (١٠٢٠/٢).

وكذلك قول النبي محمد ﷺ لأحد أصحابه عندما رأى منه مبالغته في الصيام وقيام الليل حتى أنهك نفسه (إن لبدنك عليك حقّاً، ولعينيك عليك حقّاً ولأهلك عليك حقّاً، ولزوجك عليك حقّاً)[(١)] ويتضح لنا بجلاء مما تقدم أن العبادة في مفهوم الآية القرآنية آنفه الذكر هي مجموعة من الأقوال والأفعال التي ترضي الله تعالى، والتي يقوم بها الإنسان في يومه وليلته وعلى ضوء ذلك يستطيع الإنسان العاقل أن يقسم وقته بين عمل يكسب فيه رزقه وعبادة يشكر فيها ربه من صلاة وصيام وقراءة قرآن، ويستطيع أن يخصص جزءاً من وقته للترويح عن نفسه كلعب بعض أنواع الرياضة، أو الاستماع إلى الإنشاد، فإذا تحقق كل هذا وجعل الإنسان أعماله هذه لوجه الله وابتغاء مرضاته، أصبح الفرد عبداً مطيعاً لله وبالتالي سيكون إنساناً يخدم الإنسانية، واعلم أن الله أرسل الرسل كل الرسل من أجل إفراده بالعبادة وتحرير الناس من عبادة العباد وهوى العباد إلى عبادة رب العباد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فإذا حققت المجتمعات توحيد الله وطبقت تشريعاته التي شرعها لهم فإن الله يسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنه ويزيل عنهم الفقر والخوف ويعمُّهم بالخير والأمن..

---

(١) فتح الباري، حديث رقم (١٠٨٥).

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [القصص: ٦٨]، وإذا حصل العكس ووقع الناس فيما ينهى الله عنه من التعلق بشركاء الله وشرعوا لهم تشريعات من هوى أنفسهم بديلة عن شرعة الله وألزموهم بها فإن الله سيغضب عليهم جميعاً وينتقم منهم جميعاً وقد لا ينتقم الله سبحانه من جميع الأمم الكافرة أو الفاسدة أو الظالمة ولكنه يختار بعلمه وحكمته ومشيئته أمماً تكون عبراً لما بين يديها وما خلفها من الأمم فهو القائل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] ..

وفي التاريخ قصص وقصص لا حصر لها ذكر القرآن الكريم الكثير منها، كل واحدة منها تصلح لأن تكون عبرة لمن يريد أن يعتبر، ولكن المعتبرين هذه الأيام قليلون..

ـ وأنا أريد أن أكون من المعتبرين .. وسأقوم بالعبادات على أكمل وجه لأكون من المؤمنين!!

قال ذلك الشيخ السائل .. فبدت علامات الارتياح على الشيخ يوسف فأراد أن يستدرك ليوضح له أمراً قد يكون مازال عالقاً غير واضح فقال:

ـ على الإنسان المؤمن أن تكون الهداية مبتغاه الأول لأن فيها نجاته، وتكون باستقامة، و بمشيئة الله وليس على هواه هو، ومهما

عمل الإنسان من أعمال الخير والصلاح فلا يعجب بما عمل ولا يعجب بنفسه لأن أي عمل متوقف على قبول الله سبحانه وتعالى لذلك العمل وإلا فما الفائدة منه .. وإن نفس الإنسان بطبيعتها الضعيفة لا تصبر على العذاب من أي نوع فكيف إذا كان العذاب بالنار ؟ وأي نار ؟ هي نار الله سبحانه وتعالى، لذلك يقتضي أن يستمر الإنسان بالأعمال الصالحة للنجاة من النار، ولا يغرَّ الإنسانَ أن أعماله صالحة وحسنة، فعليه أن لا يطمئن ولا يسمح لنفسه بالاطمئنان فكم من روضة أزهارها كثيرة يانعة وأرضها خضراء شاسعة أضحت أرضها يابسة قاحلة وزهرها يابساً هشيماً حين تهب عليها الريح العقيم بأمر ربها، وكم من مؤمن قلبه عامر بذكر الله على حين غفلة يسير بدرب الظلام من غير رادع ولا مانع ..وكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره فصار قلبه مظلماً أسود فابتعد عن الله .. واتبع هواه وكان أمره فرطاً .. فصار أسير شهواته، لسانه لا يوفق لذكر الله، غافل متعبد لهواه، جوارحه معطله عن الطاعات ومنشغلة بالمعاصي والترهات، بينما القلب الذي ينبض بحب الله والشوق إليه والاستئناس به يكون مهيئاً لخاتمة جميلة، ويكون مستعدّاً لها .. وعلى الإنسان أن لا يضيع أمرين مهمين وأساسيين في حياته أولهما قلبه بإيثار دنياه الفانية على آخرته الباقية وإضاعة وقته وحياته بطول الأمل فإن الكارثة واجتماع الفساد كله

في اتباع الهوى وطول الأمل ..

ـ لا ندري كيف نؤدي حقك من الشكر أيها الشيخ الجليل، قالها شاب قد تغيرت ملامح وجهه وبدا الخجل على محياه وهو يستمع وينظر إلى كل ما يجري .. نحن على علم كم قصرنا في حقك ولكن من اليوم إن شاء الله سترى منا ما يسرك بإذن الله ونعاهدك أمام الله على ذلك ..

ــ بارك الله فيك وفي الجميع، إنما الشكر لله وحده فهو صاحب الفضل الأول والأخير على الناس.

كان محمد بن صالح ينظر إلى المشهد، فعزت في نفسه النهاية.. فأخرج سلاحاً يخبؤه تحت ثيابه، فرمى الشيخ يوسف برصاصات أصابته بمقتل، ولم يشعر الناس إلا والشيخ يوسف بينهم مضرجاً بدمائه، أسرعوا إليه لإنقاذه فسمعوه يردد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وهو يبتسم ويشير بسبابته بحركة التوحيد، ويردد: (اللهم اشهد أنني قد بلغت، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)، ثم خرجت روحه آمنةً مطمئنة إلى بارئها .. هاج الناس ولحقوا بمحمد ابن صالح وهو يحاول الهروب .. فأمسكوا به وأوسعوه ضرباً وكسروا البيانو على رأسه حتى مات لساعته .. وهكذا تهشمت تلك الآلهةالتي باع من أجلها آخرته، بل باع دنياه وآخرته، فكان

نموذجاً صريحاً حاضراً لمن وصفهم الله سبحانه وتعالى:

بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦] ..

قامت القرية أجمعها وصلّوا صلاة الجنازة على الشيخ الشهيد (يوسف) ..

ودفنوه .. وكتبوا على قبره (شهيد القرية التائبة) ..

فقام أحد الشباب وقال:

ـ حتى نكون قد تعلمنا الدرس، واتعظنا قوموا بنا نضع صخرة عند عين الماء ننقش عليها آيتين من كتاب الله لتبقى قريتنا على مرِّ الأزمان عبرة لمن يريد أن يعتبر، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فقاموا فنقلوا صخرة كبيرة وضعوها عند عين الماء نقشوا عليها آيتين فأما الأولى فكانت قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]..

والثانية فكانت قوله تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾ [الكهف: ٥٩]..

تمت بحمد الله